لغز المدينة الغاضبة

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

تمَّ إصدار هذا الكتاب بِدَعمٍ مِن برنامج «أضواء على حقوق النشر» إحدى مبادرات معرض أبوظبي الدولي للكتاب، بدولةِ الإمارات العربية المتحدة.

دمشق – القاهرة – الشارقة

هاتف 00963 11 2248433 00971505471688

e-mail: almaktabi@gmail.com فاكس 00963 11 2248432 ص.ب 3309

www.almaktabi.com

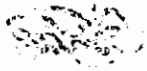

جميع الحقوق محفوظة

لغز المدينة الغامضة

Sakli Kent

أحمد يلماز بويون آغا

Ahmet Yilmaz Boyund ağa

ترجمة: مصطفى حمزة

دار المكتبي

تَعريف بالمؤلف

أحمد يلماز بويون آغا (١٩٣٥-١٩٩٥)، مجاز في كلية الآداب، قسم التاريخ، من جامعة إسطنبول، **له أبحاث وروايات تاريخية كثيرة، منها:**

- الشاب البطل / السيد الغازي المشهور بالبطال.
- في سبيل الهلال / صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية الثالثة.
- سناجق الفتح / من أُسود بدر إلى عصر الفاتح.
- رياح النصر / الرئيس طورغوت.
- الطفل والبئر / سيدنا يوسف.
- الفرمان الذهبي / بركة نويان.
- حديقة الورود النارية / سيدنا إبراهيم.
- تنين البحر.
- القائد الأسطورة / طارق بن زياد.
- المقاتل الجسور.
- مطاردة القراصنة.
- جزيرة المغامرات.
- في النهر صندوق / سيدنا موسى.
- الطوفان / سيدنا نوح وسيدنا هود وسيدنا صالح.
- في سبيل الحرية / الشيخ شامل.
- الصخور التي لها صدى.
- خان أوغلو / بطل من السلاجقة.
- أبطال العثمانيين / مغامرات الرئيس السيد علي ورجاله.
- الصفحات الذهبية / قصص تاريخية ودينية.
- التاريخ الإسلامي.
- النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأوائل.
- حروب الرحمة.
- البناء التركي الإسلامي.

لغز المدينة الغامضة
الإسكافي البغدادي

في زمن الخليفة هارون الرشيد كان يعيش في بغداد إسكافيٌّ فقيرٌ، يعمل منذ زمن طويل في إصلاح الأحذية القديمة، ولم يكن يشتكي من فقره أبداً، وكان يقول:

- إن الله يرزق الناس فرداً فرداً، ولا ينسى من فضله أحداً، والحمد لله دائماً وأبداً، ألا يكفي أني أكسب مؤونة أهلي وأولادي، ولا أحتاج أحداً... أعوذ بالله من طَمَعٍ يُعْمِي القَلْبَ، ومن العين التي لا تشبعُ من المال.

وكانت زوجته راضيةً عن حالتها مثلُ زوجها. وكان ابنهما أحمد مراد ولداً جميلاً حَسَنُ الطِّباعِ والأخلاقِ، وكان أصدقاؤُه في الحارة يحبونه كثيراً، لأنه كان حَسَنَ المَعْشَرِ، يعيش مع الجميع بشكلٍ جيدٍ، فلا يتشاجرُ مع أحدٍ، ولا يجرح شعورَ أحدٍ، وكان أبواهُ راضيين عنه.

كان أبوه يريد أن يصبح إسكافياً مثلَه، لكن أحمد مراد كان يكره هذا العمل، وذات يوم كان والده يحدثه كالعادة عن مهنته، ويطلب منه أن يصبح إسكافياً مثله، فأجابهأحمد مراد وهو يعترض في أدبٍ، ويقول:

- إن رغبتُم فسأعمل في هذا العمل من أجل كسب لقمة عيشي، لكني أقولها صراحةً: لا أريد أن أصبح إسكافياً، نعم لا أسْتَخِفُّ بقيمة هذا العمل، فأنا كبرت بالمال الذي يأتي من هذا العمل!، ولا زلنا نعيش بفضله!. لكنَّ هذا العمل لا يناسبني، فإن أصبحت إسكافياً؛ فسأقومُ بالعمل بشكلٍ سيئ غير مرغوبٍ.

سأله أبوه:

- حسناً! ما هو العمل الذي تفكر به يا بني؟!.

- أريد العمل في التجارة يا والدي، فالتجارة تبدو لي عملاً مُمْتِعاً، .. طبعاً عَمَلُكَ جميلٌ جداً، فَأَنْتَ تقدِّمُ المساعدةَ للفقراءِ، وتَكْسَبُ الدَّعَواتِ الصالحةَ منهم.. وللتجارة فوائدها الكثيرة أيضاً... سأَحْمِلُ البضائعَ من بلدان بعيدةٍ لا توجد في بلدنا، وأبيعه هنا، ففي البلدان البعيدة يكسبون المال، وهنا يتعرفون على تلك البضائع. أليس هذا شيئاً جيداً يا والدي؟!.

- لقد أحسنتَ التفكيرَ يا بُنَيَّ، أنا موافق ولن أجبرك على العمل معي، ولكن من أين ستأتي بالمال للعمل في التجارة؟ طبعاً، العمل في التجارة يحتاج إلى ثروةٍ، وإلا فكيف تشتري البضاعة وتبيعها؟!.

فرح أحمد مراد عندما عَلِمَ بموافقة والده، وقال:

- لاتقلق ياأَبَتِ! سأعملُ في تجارةٍ بسيطةٍ لأحصلَ على رأسِ المالِ، ثمَّ أَنْطَلِقُ إلى المناطقِ البعيدةِ.

في اليوم التالي، وبينما كان الإسكافي الفقير يعمل في دكانه الصغير، ذهب أحمد مراد إلى تاجر التَّمْرِ الذي يسكن في حارته، وشرح له ما يفكر به، وطلب منه عشرَ

أوقياتٍ من التمر (حوالي ١٠٣كغ) على أن يدفعَ له ثمنَها بعد أن يبيعَها. ورضي التاجر أن يعطي أحمد مراد ما يريد، لأنه يثق به وبأبيه، وقال:

- حباً وكرامةً يابني! ليس عشر أوقيات فقط، بل خذ الكمية التي تريدها. وسأعطيك الأوقية بثلاثين درهماً، وتبيعها بستين درهماً، وستكسب ربحاً جيداً إن شاء الله... حمل أحمد مراد أوقيات التمر على العربة فَرِحاً وهو يشكر التاجر، وانطلق في أَزِقَّةِ بغداد ينادي على التمر ويبيع.

لقد أعان الله أحمد مراد على جده وإخلاصه، فباع كلَّ التمراتِ في يومٍ واحدٍ، وربح ثلاثمئة درهم، فاشترى اللحم والفواكه والحلويات في طريق عودته إلى البيت، فكان ذلك اليوم عيداً في بيت الإسكافي الفقير، وكانت دهشة الإسكافي الفقير من ربح ابنه كبيرة، ودعا له بالخير. قال أحمد مراد:

- لقد بدأت أكسب المال يا والدي، وسأكسب المزيد بإذن الله، لقد عملتَ يا والدي سنواتٍ طويلةً، وتعبت

كثيراً، وقد آن الأوان لتجلس، وتستريح.

قال الإسكافي:

- رضي الله عليك يا بني، لقد تحدثت بأجمل شيءٍ يحبُّ الأب أن يسمعه من ولده، لكنَّ صحتي جيدةٌ والحمد لله، وأشعر بأنني في حالةٍ جيدةٍ، فلماذا أترك عملي؟!، .. لن أترك عملي وأجلس بلا عمل.

- حسناً، إن أبيت يا والدي، فسأكسب شيئاً من المال، وأفتح متجراً، وتكون أنت مديراً لأعمالنا!.

- ولن يكون ذلك أيضاً، فقد ولدتُ، وتربيتُ منذ الصغر مع الإسكافيين، ولا أستطيع الخوض مع الخياطين!.

لم يكن أمام أحمد مراد سوى الخضوع والسكوت أمام إصرار والده. في اليوم التالي ذهب إلى التاجر مرة أخرى، وأخذ خمس عشرة أوقية من التمر، وبينما كان ينادي على التمر في السوق؛ رأى رجلاً مقبلاً مع خادمين له يتبعانه من خلفه. ناداه الرجل:

- يا بائع التمر! يا بائع التمر!.

اقترب أحمد مراد من الرجل، وعرض تمره على الرجل،

وتناول تمرة في فمه، وذاق طعمها، وأحمد ينظر إلى وجه الرجل بحماس. قال الرجل:

- إن تمراتك طيبة، واشتريها كلها منك، لكن عليك أن تنقلها إلى مسكننا.

- حسناً.

وتبع أحمد الرجل، والرجل يتسوق من هنا وهناك، فاشترى فواكه وخضراوات مختلفة، والخادمان يحملان، وأحمد مراد مُطْرِقٌ يفكر في نفسه: تُرَى منْ هذا الرجلُ الذي اشترى خمس عشرة أوقية من التمر دون أن يسأل عن سعرها!.

أخيراً، وبعد سيرٍ طويلٍ؛ توقفوا أمام قصرٍ كبيرٍ!. فُتِحَت الأَبوابُ وخرج ثلاثٌ من الخدمِ، ونقلوا البضاعة التي تم شراؤها إلى الداخل. والتفت الرجل إلى أحمد مراد وهو يعطيه ثمن التمر:

- انظر يا بني، هنا قصر جعفر البرمكي وزير خليفتك، وقد أعجبتني تمراتك، ولدينا وليمةٌ هذا المساء، وأظن أن التمرات ستنتهي هذه الليلة، فعليك أن تأتينا بخمس

أوقياتٍ من التمر غداً ليأكله سكان القصر!.
غادر أحمد مراد هناك مسروراً.

السفر إلى بلاد بعيدة

حصل لأحمد مراد ما أراد، وصار لديه رأسُ مالٍ جَيِّدٍ من أرباح التمر. أنفق ثلثه في حاجات أبيه وأمه، وبعد تفكيرٍ طويلٍ قرَّرَ تشغيل ما بقي له من ماله، وهو يقول: (التاجر الذي يخشى الخسارة لا يعرف الربح).

تباحث مع بعض التجار وتعرف على آرائهم ووجهات نظرهم، فقال تاجرٌ عجوزٌ:

- لو كنت مكانك لاشتريت بهذا المال بضاعة من بغداد، وذهبت به إلى البصرة، ومن هناك انتقلت بها إلى الهند، وبالمال الذي أحصل عليه من البيع في الهند أشتري

من البضائع كذا وكذا، وأعود بها إلى البلاد وأبيعها هنا، وهذا العمل سيوفر أموالاً كثيرةً.

وقال تاجرٌ كبيرٌ آخر كان ينظر إليه:

- وأنا يا بني! كنت أريد أن أفعل الشيء نفسه، فإن أحْبَبْتَ نسافر معاً، ونحملُ البضائعَ إلى الهند، ونتاجر بها، ونكون عوناً لبعضنا على وعثاء السفر.

شكر أحمد مراد هؤلاء التجار الصادقين:

- اتفقنا يا سيدي، وسأتلقى من خبراتكم وتجاربكم إن شاء الله.

ابتسم التاجر العجوز وأضاف:

- أحببت لطفك يا بني، لقد أنسيتني شيخوختي بحَيَوِيَّتِكَ وشبابك يا صاحبي.

فارق أحمد مراد مَحْفِلَ التجار، واتجه نحو السوق، واشترى العديد من الأشياء.

وفي المساء كان يَقُصُّ على والديه ما حدث، فاضطرب العجوزان عندما علما بأنه سيسافر إلى الهند، وقالت أمه: ولدي الجميل! يحزِنُنا فراقُكَ كثيراً، لكنّي أراك قد

عَزَمْتَ على السفر، وليس لدي ما أقول، إلا أن أدعو لك بالتوفيق، .. رافَتَقْكَ دَعَواتي، وإن انقطعت بك الآمال من العباد فلا ينقطع بك الأمل من الله .

في الصباح التالي. قبل أحمد مراد يد أبيه وأمه، والتقى مع صديقه التاجر الذي قد اتفق معه. وبعدها أخذ بضاعته، وحملها على السفينة التي كانت في الشاطئ. سحبت السفينة مراسيها، وتحركت تسبح فوق الماء...

كان أحمد مراد مضطرباً! ... لم يكن هذا الأمر سهلاً عليه!، إنه يغادر البلد الذي عاش فيه منذ زمنٍ طويلٍ لأوَّلِ مرةٍ. قطعت السفينة النهر، وانفتحت على البحر في الخليج، وازداد اضطرابه في البحر، فهذه المرة الأولى التي يرى فيها النهر، وغرقت عيناه بمياه البحر الواسع، وأصيبت بالذهول في أفقه العظيم!. ولم يطل به الأمر، وسرعان ما زال عنه الذهول، وأخذ يتحدث مع بقية التجار المسافرين.

مضى يومه الأول من رحلته براحةٍ تامةٍ، وفي اليوم التالي، امتلأت السماء بالغيوم، وبدأت الرياح تهب في الاتجاه

المعاكس، وأخذت الأمواج ترتفع، وتعلقت أبصار قبطان السفينة تحلق في السماء بعيونٍ خائفةٍ، وسرعان ما دبت في طاقم السفينة الحركة، وتحركوا إلى العمل مسرعين، وهم يصرخون.

وهكذا، لم يكن من الممكن متابعة الرحلة، وبدؤوا بإلقاء المراسي وسط البحر، وأسرعوا ينزلون جميع الأشرعة!. واستمرت العواصف طوال الليل، وتستنفر الأمواج لتلطم السفينة، ولم تعد العيون تبصر بعضها في الظلام!. فكر أحمد مراد بالصعود على ظهر السفينة لينظر، لكن صديقه التاجر البغدادي نصحه قائلاً:

- أرجو أن لا تتحرك من مكانك!، فإنك لاتدري ماالذي سيحدث، لا يفضل الخروج في هذا الظرف إلى الخارج.

لكن أحمد مراد توجه إلى باب المقصورة وهو يقول:

- سألقي نظرةً فقط!.

وفور خروجه كانت الرياح العاتية تجره، وتلقي به إلى البحر، قبل أن ينفعه الندم!.

سمع بعض الركاب صراخ أحمد مراد، لكنه لم يجرؤ

أحدٌ على الخروج لمساعدته، فكلُّ واحدٍ منهم كان مشغولاً بمحنته، كما كان بعض الملاحين المنشغلين بالحبال وقعوا في البحر أيضاً.

وجد أحمد مراد نفسه في المياه العميقة، وقد غمرته الأمواج، ونجا منها عدة مراتٍ، وتعب تعباً شديداً، وكاد أن يفقد حياته، حتى وقعت بين يديه خشبةٌ كبيرةٌ، فعانقها بشدةٍ وعزمٍ، وربط بها نفسه بعمامته التي كانت على رأسه بإحكامٍ، وعندها فقط استطاع أن يتنفس الصعداء.

ثم استَغْرَقَ أحمدُ مراد في نومٍ عميقٍ، وهو مربوطٌ بالخشبة لشدة ما عاناه من القلق والتعب والبرد، ولم يفتح عينيه إلا عندما بدأت حرارة الشمس تُلْهِبُهُ، عندها تَذَكَّرَ ما حدثَ لَهُ واعْتَراهُ الخَوْفُ. إنَّهُ الآن يعيشُ على قطعة خشبٍ وَسَطَ بحرٍ لا تُعْرَفُ له بدايةٌ ولا نهايةٌ...

هدأت العاصفة الليلية، وبدا البحر كميناءٍ من حليبٍ.

أَخَذَ أحمد مراد يشق طريقه دافعاً الماءَ خَلْفَهُ مستخدماً يده كالمجدافِ، وأمضى يوماً آخر على هذا الشكل، كان

يعاني من حاجته الشديدة للماء تحت حرارة الشمس، لقد تشقق وجهه وشفتاه من الحرارة، ليته يجد ماءً ... ليشرب منه أرطالاً. نام تلك الليلة أيضاً على الخشبة، وعلى وقع أصوات الأمواج، وعندما فتح عينيه صباحاً، يالَهُ من منظرٍ جميلٍ! إنها جزيرةٌ خضراء تبدو أمامه.

الجزيرةُ الخضراءُ

كاد أحمد مراد يَفْقِدُ عَقْلَهُ من شدة الفرح وهو يرى الجزيرة، وبدأ يسبح نحوها بسرعةٍ كبيرةٍ. وصل إلى المياه البلورية في الشاطئ، وفَكَّ عِمامَتَهُ وحِزامَهُ، وتَخَلَّصَ من الخشبة، وسار على الشاطئ، ثم بدأ يتقدم بين النباتات المنتشرة على الشاطئ.

لقد أصابه العطش الشديد، وكل همه الآن هو الماء، كانت المناطق الداخلية للجزيرة مغطاةً بالأشجار المختلفة والأزهار والخضراوات، والروائح الزكية تفوح في كل مكان، والعصافير المختلفة تطير حوله وهي ترسل ألحانها الجميلة.

لكن الدنيا كانت مسودةً أمام عينيه، ولم يعد يستطيع أن يميز شيئاً من جمال الجزيرة حوله. وفي النهاية عثر على نَبْعٍ في ظل شجرةٍ عملاقةٍ يترقرق منه الماء، وانحنى مباشرةً، سمى الله وشرب من الماء، ياإلهي ما أطيبه وما ألذه، .. وأصبح أحمد مراد وكأنها ماء الحياة تسري فيه، حتى إذا ارتوى؛ نظر حواليه يبحثُ عن شيء يُشْبِعُ بِهِ بَطْنَهُ، وانتبه للفواكه الناضجة الساقطة من الأشجار، فأخذ يتناول من الأشجار، ويأكل حتى شبع، ثم استغرق في نومٍ عميقٍ، وهو يشكر الله.

لا يدري كم طال نومه عندما استيقظ على ألحان العصافير، وزقزقة أسرابها، وهي تأوي إلى أعشاشها، فأدرك أن الوقت متأخرٌ، فعاد إلى الماء من جديدٍ وشرب منها، وعندما هَمَّ بالفواكه ليأكل منها تَذَكَّرَ الصلاة، فتوضَّأَ، وصلَّى صلاة الوقْتِ، وقضى ما فاته من الصلوات، ثم تناول ما يسر الله له من الفواكه حتى شبع، ثم أوى إلى أغصان شَجَرَةٍ، وباتَ عليها ليلَتَهُ.

في الصباح نزل من الشجرة، وأخذ يتجول في أطراف

الجزيرة،.. كانت الجزيرة كبيرةً جداً، ولاحظ تكاثف النباتات كلما تقدم في أعماق الغابة، وهكذا بقي يتجول حتى المساء، وحل الظلام بحلول المساء، وصعِد من جديدٍ إلى شجرةٍ، ونام بين أغصانها الواسعة.

في الصباح استيقظ على بعض الأصوات والصرخات، ونظر إلى الأسفل فماذا رأى!.. رأى أقواماً يسكنون الجزيرة، على رؤوسهم قبعات تحمل الريش، وفي أيديهم رماحٌ يطاردون بها بعض الأشخاص، فالجزيرة لم تكن فارغة من سكانها كما يبدو.

اختبأ أحمد مراد جيداً بين الأغصان، وهو يحاول أن يعرف ما يحصل حوله، واختبأ أحد الهاربين بين الأعشاب القريبة منه، لكن الآخران رآهما السكان المحليون قبل أن يتمكنا من الاختباء، وتراكض السكان المحليون نحوهما، حتى رمى أحدهم برمحه الذي يحمله، فأصاب أحدهما، وألقاه أرضاً. وصرخ الرجل القاتل فرحاً، وجرى نحو صيده، وأُلْقِيَ القبض على الرجل الآخر، وساقوه أمامهم مباشرةً، وانصرفوا مُتَوَغِّلِينَ في

أعماقِ الغابَةِ.

ترجَّلَ أحمد مراد عن الشجرة بعد أن غاب القوم عن الأنظار، ومشى نحو المكان الذي اختبأ فيه الرجل المطارد منذ قليل، وناداه:

- هيا يا صديقي! لم تعد بحاجةٍ إلى الاختفاء!.

وخرج صوتٌ متعبٌ من بين الأعشاب يسأله:

- إِنْسِيٌّ أنت أَمْ جِنِّيٌّ؟.

- بل أنا بشرٌ مثلك.

فأجهش الرجل بالبكاء، فسأله أحمد مراد:

- وكيف أتيت إلى هذه الجزيرة؟.

قال الرجل:

- لاتسأل ياصديقي!، إني ملاح في سفينةٍ تجاريةٍ تنقل البضائع في تجارةٍ إلى الهند، وقد اعترضنا إعصارٌ شديدٌ، فسقطت مع صديقين لي في البحر، ولم نصل الجزيرة إلا هذا الصباح، فتعرضنا للسطو من سكان الجزيرة الأصليين قبل أن نتمكن من شرب الماء، فقتلوا أحدهما، وألقوا القبض على الآخر، وربما سيأكلونه بعد شوائه...

- يا صديقي، كنا في نفس السفينة! ووقعت مثلكم في البحر من نفس السفينة، لكن حظي أوفر من حظكم، فخرجت إلى الجزيرة من مكانٍ لا يوجد فيه أحدٌ... يبدو أن أهل الجزيرة لا يرحبون بالضيف، هيا نبحث عن الماء فترتوي بدايةً.

فرح هذا الرجل الذي كاد الجوع والعطش أن يقضي عليه، أخذه أحمد مراد إلى المكان الذي يوجد فيه الماء، وشرب الرجل الماءَ بِنَهَمٍ، وأكلَ من الفواكه التي جمعها أحمد مراد، حتى شبعَ، واستسلم بعدها للنوم. كان أحمد مراد يحرسه، ويجمع ما يأكلونه عندما رأى أن الرجل قد استيقظ، فقال له:

- والآن هيا يا صديقي لنعمل على إنقاذ صديقك الأسير.

قال الرجل في ذهولٍ:

- إنقاذٌ؟! ولكن كيف؟!.

- لا أعرف، يجب أن نحاول.

- ربما قتلوه!.

- لا أعرف!لكنهم إن لم يكونوا قد قتلوه، فسيقتلونه الليلة. ألا ينبغي أن نفعل شيئاً؟!.

- صحيح! قل ماذا نفعل ؟!.

- نحاول قبل كل شيءٍ أن نستطلع المكان، ونصل بهدوء إلى المكان الذي يعيشون فيه، ونبحث عن وضع صديقنا.

وانطلق الصديقان بتنفيذ المخطط، وسارا طويلاً حتى وصلا قرية السكان المحليين، حينها كان الوقت ليلاً، ولم يلاحظهما أحدٌ في الظلام، وكان القوم مجتمعين حول النار في ساحةٍ مكشوفةٍ، وصديقهم مربوطٌ إلى عمودٍ. همس الملاح الناجي لأحمد مراد:

- إنه هو! لم يمت بعدُ، لكنهم سيشوونه، ويأكلونه!.

طمأنه أحمد مراد، وهو يقول

- سننقذه بإذن الله!.

كان القوم يرقصون ويغنون، حتى خطرت في بال أحمد مراد فكرة، فتمتم:

- سأحاول إثارة الرعب فيهم حتى يهربوا، ويتفرقوا عنه، وخلالها تسعى إلى صديقك، وتحله من القيد، وتتحركان

معاً في هذا الاتجاه.

كان القوم في قمة نشوتهم وحماسهم عندما وضع أحمد مراد كفيه على فمه كالبوق، وأخذ يصرخ، ويصدر أصواتاً غريبةً، كان هدير صوته تلك الليلة يطغى على ضوضاء كل الأصوات، وسكت الجميع وتلاقت النظرات في قلقٍ وتَرَقُّبٍ وخَوْفٍ، .. صدر الصوت المبحوح من مكان آخر هذه المرة.

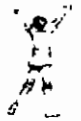

ومع ارتفاع الصرخات تراكض سكان الجزيرة إلى أكواخهم بسرعةٍ، وأخلوا الساحة، فاقترب صديق أحمد مراد زاحفاً من الرجل الأبيض المربوط إلى العمود، وأخرج السكين من حزامه وقطع عنه قيود الحبال، وأنقذه..وكان أحمد خلالها يستمر في إصدار الصوت المبحوح... وقد كان يستفيد من هذه الأصوات عندما كان يلعب مع أصدقائه في الحارة!...

عندما رأى أحمد مراد قدوم صديقيه، أصدر هديراً جديداً، ثم تبعهما. وانسحب الأصدقاء الثلاثة يركضون في أعماق الغابة، وكان عليهم أن يحتاطوا

لكافة الاحتمالات حتى لا يتبعهم سكان الجزيرة.

لم يمض بهم الأمر طويلاً، فقد حصل ما كانوا يخشونه، وبدأت صرخات السكان المحليين تصل إليهم، وأحمد مراد وصديقاه يركضون بكل ما أوتوا من قوةٍ. كانت شجيرات الأحراش الصغيرة تجرحُ أيديَهم وأرجلَهم وأجسادَهم، لكنهم لم يكونوايحسون بها، ولم يكونوا يبالون بشيءٍ سوى النجاة.

في النهر

كانوا قد تعبوا كثيراً، وكانت قلوبهم تخفق في صدورهم كما يتخبط الطير في قفصه. تهالَكَ الرجل الذي أنقذوه على الأرض من شدة الإرهاقِ، وحَشْرَجَ صوته وهو يقول:

- لن أركض بعد الآن، حتى لو أحاطوا بي وأمسكوني وقتلوني.

وانضم إليه صديقه:

- وأنا كذلك!.

حاول أحمد مراد رفع معنوياتهم قائلاً:

- ماذا تفعلون أيها الأصدقاء، هل انقطعت آمالكم بالله؟!، هيا لمزيد من الجهد، سيجعل الله لنا مخرجاً وباباً للنجاة.

كانت كلماته تحاول بعث الأمل فيهما، فوقفا من جديد، وتابعا المسير، وهناك على قمة التلة وهم ينحدرون إلى سفحه الآخر؛ فوجئوا ببريق ضوء القمر تنعكس على عيونهم من سطح نهر يجري نحو البحر، وعلى ضفته زورقٌ صغيرٌ. لمعت عينا أحمد مراد ببريق الفرح وهو يقول:

- انظروا! انظروا! إنه نهرٌ وزورقٌ... ألم أقل لكم: إن الله يعين كل من يبذل جهده ويجتهد، هيا نركب الزورق الآن، ونبتعد من هنا.

نزلوا جميعاً إلى ضفة النهر، وقطعوا الحبل الذي يربطه بالسكين، كان الزورق بدائياً، والحبل مجدولاً من الأعشاب، مد أحمد مراد المجداف إلى أحد البحارَيْنِ، وقال:

- هيا أسرع يا محمود، ولنتبع مجرى النهر.

أجابه محمود:

- لا تقلق يا أحمد مراد. لن يدركنا منهم أحدٌ بعد الآن!.

وبدأ بتحريك المجاديف بهمة ونشاط وخبرة بحارٍ عريقٍ، وأسرعوا في النهر. عندها بدأت الأصوات المرعبة تظهر فجأةً، وعندما أداروا رؤوسهم إلى جهة الأصوات رأوا في على ضفة النهر سكان القرية المتوحشين يتراكضون نحوهم، ويرمونهم بالسهام، وزاد محمود من حركة المجاديف، وارتفع صوت أحمد مراد:

- هيا أسرع ياصديقي!... فهناك من ألقى بنفسه في النهر، ويسبح نحونا... أسرع كي لا يصلوا إلينا.

تشبث محمود بالمجاديف، أخذ يحركهما في الماء بقوة دون أن يجيب، وساعد جريان الماء على الابتعاد عن السكان المتوحشين، وغابوا عن أعينهم، والزورق يسبح فوق الماء بسرعة عالية. وتمتم أحمد مراد:

- الحمد لله. لقد نجونا حتى الآن من أيدي هؤلاء.

سأل محمود:

- ولماذا تقول حتى الآن؟!.

- لأننا لاندري ماالذي سيحدث بعد الآن.

انضم هدايت - وهو اسم البحار الآخر - إلى الحديث:

- صحيح! من كان يظن أننا سنقع في البحر أثناء رحلتنا بالسفينة، ونخرج إلى هذه الجزيرة؟...

وبعد مضي زمن في النهر لاحظوا تغيراً في سرعة التدفق، أثناءها وصل إلى أسماعهم صوت دوي متتابع هائل، وتوقف محمود عن التجديف وهو يقول:

- انظروا! لم نعد بحاجة إلى التجديف، إننا نمضي بسرعة عالية أليس كذلك؟

وفجأة أطلق الثلاثة معاً صرخة واحدة وهم يفكرون بالشيء نفسه:

- شلاااااال!...

نعم، كانوا يمضون نحو الشلال! صرخ محمود وهدايت:

- هيا نلقي بأنفسنا في النهر، ونسبح نحو الضفة المقابلة للنهر. وألقيا بأنفسهما في النهر دون أن يمضي الوقت وهما يقولان:

- هيا يا أحمد مراد، وأنت أيضاً ألق بنفسك في النهر.

ألقى أحمد مراد بنفسه في النهر خلفهما أيضاً، لكن تدفق الماء كان هائلاً، وقاوموا السقوط في الشلال بسباحتهم المتقنة الخبيرة، وبعد جهد جهيد استطاعوا الخروج إلى البر، واستلقوا على الأعشاب فوراً. قال هدايت:

- يا أصدقائي، إن كنا نجونا حتى الآن؛ فعلينا أن لا نترك الحيطة والحذر، فربما كان السكان يراقبوننا ونحن نخلد إلى النوم هنا طويلاً بعد هذا التعب، فيصطادوننا كما يصطادون الأسماك الملقاة على الشاطئ.سأل محمود بصوت متعب:

- فما العمل؟!.

- نذهب إلى الداخل أكثر، إلى مكان نشعر فيه بالأمان، أو نصعد على شجرة، تخفينا عن أعين المراقبين. قال أحمد مراد:

- كلام سليم لاغبار عليه، هيا قوموا نبحث عن شجرة.

تقدم الأصدقاء الثلاثة نحوالأدغال في الغابة، وبدؤوا بالبحث عن شجرة كبيرة يستريحون فوقها، وسرعان ما

وجدوا ما يريدون، وصعدوا الشجرة الكبيرة وناموا بين أغصانها العريضة، واستغرقوا في نوم عميق.

استيقظوا بعد ساعات على وقع أصواتٍ مختلطة، وتصلبت الدماء في عروقهم عندما نظروا إلى الأسفل، فقد رأوا سكان القرية يحملون رماحهم بأيديهم، ويتقدمون على شاطئ النهر.

كانوا يتقدمون باتجاه الشلال، يتابعون مصيرهم. وتلاقت عيون الأصدقاء الثلاثة في خوف، وتمتم أحمد مراد قائلاً:

- لا تخافوا، إنهم سيظنون أننا قد وقعنا في الشلال، ولو عثروا على آثارنا لأتوا إلى هذه الجهة.

كان أحمد مراد محقاً في أقواله، فقد ذهب السكان المحليون حتى مصب الشلال، نظروا إلى الماء المنساب بصخب، ثم رجعوا عائدين، وغابوا عن الأنظار.

تنفس أحمد مراد الصعداء، ثم قال بعدها:

- لقد نجونا أيها الأصدقاء، وسيتركون ملاحقتنا إن شاء الله.

قال هدايت:

- لو كان في أيدينا سلاح لكنا في أمان أكثر.

قال أحمد مراد:

- فلنجهز سلاحنا حسب إمكانياتنا.

- فماذا يمكن أن نعمل؟

- على الأقل نقطع أغصاناً طويلةً، ونبري رؤوسها، ونستخدمها كالرماح.

انضم إليه محمود قائلاً:

- إيهٍ يا أحمد مراد أطال الله عمرك، كم هو جميلٌ أن نستخدم الرماح التي نصنعها لمواجهة الأعداء؛ كأداة للصيد أيضاً...

- نصطاد؟!.. ماذا نستطيع أن نصطاد؟!.

- أشياءٌ كثيرةٌ، نستصيع اصطيادها، حتى السمك في النهر، فنحن لم نذق على هذه الجزيرة سوى الفاكهة، تخيلواأننا شككنا سمكةً كبيرةً على رأس قضيب، ونشويه على النار...

انضم هدايت إلى الحديث:

- أرجوكم لا تسيلوا لعابنا!.

نظر إليه محمود باستغراب:

- إنه ليس أمراً خارقاً، نجهز الرماح بدايةً.

- حسناً، لكن النار...

- يوجد لها حل أيضاً، يكفي أن نمسك بسمكةٍ أو حيوانٍ. هيا بنا الآن ننزل إلى الأرض، ونباشر بالعمل بدل الكلام.

نزل الأصدقاء الثلاثة من الشجرة، وانتشروا في المناطق المحيطة، وبدأ كل واحد يبحث عن قضيب مستقيم طويلٍ .وبعد قليل أخذوا القضبان التي وجدوها، وجلسوا على الأرض يصنعون منها الرماح، وبدأ كل واحدٍ منهم يشحذ رأس القضيب بالسكين الذي أخرجه من حزامه، وهم يتحادثون.

قال أحمد مراد:

- أيها الأصدقاء، مارأيكم أن نتعارف على بعض، وسأعرفكم عن نفسي أولاً.

- حسناً، تفضل!.

وأخذ أحمد مراد بالحديث عن حياته، وشرح لهم كل

شيء حتى لحظة لقائه معهم. وعندما أنهى حديثه قال محمود:

- انظر إلى تقدير الله. أنت ولدت في بغداد، وأتيت إلى هذا المكان، وهنا تشاطرنا ما قدر لنا!.

وقال هدايت:

- إيه، لاأحد يعلم المستقبل إلا...

سأل أحمد مراد قائلاً:

- لقد حدثتكم عن نفسي وما جرى لي، والآن جاء دوركم، هيا من منكما سيتكلم؟.

سكت هدايت ومحمود وقد خلدا إلى التفكير. وفي النهاية رفع محمود رأسه وهو يقول:

- أنا سأتحدث!.

توقف قليلاً، وفكر، كان يبدو أنه يحاول أن يستجمع ما يريد قوله، ثم شرع في الكلام:

الباقي هو الله

أنا من البصرة، وكان والدي من أغنيائها المعدودين، وكان تاجراً محترماً وأميناً ومسموع الكلام، وكان يملك

ما لايحصى من البيوت والأراضي والأموال والأنعام، وكان مما يزيد من غناه سفينتان تجاريتان تعملان دون كلَلٍ ولا مللٍ بين البلدان.

إنه كان مسلماً جيداً، وكان يعيش حسب أوامر الله، ولا يعطل عباداته، ويهتم بالفقير والفقراء. وأمواله من الزكاة التي يدفعها كل عام تنشر البسمة في وجوههم، وكان يشعر بسعادةٍ كبيرةٍ حين يطبق أوامر الله... كانت تقام موائد الإفطار في دارنا خلال شهر رمضان.

أما أنا فقد عشت في قصرنا الكبير بدلالٍ كبيرٍ بين الخدم الذين كانوا يسعون في خدمتي، وكنت قد فقدت والدتي وأنا صغيرٌ، وكان الجميع يحوطونني بالرعاية والحنان والدلال، ياإلهي كم كانت جميلةً تلك الأيام!.

دمعَتْ عينا محمودٍ عندما تذكر تلك الأيام الخالية، وبينما كان يمسح الدموع عن عينيه؛ كان هدايت وأحمد مراد ينتظرانه في صمتٍ.

تابع محمود يقول:

- ماذا كنت أقول؟! هاااه...هكذا كانت حياتنا تمضي

بهذا الشكل. لكنه مع مرور الأيام، فهمت أن كل شي له نهاية، وكل شيء كان يتغير، وذات يوم تغيرت حياتنا نحن أيضاً، فقد مرض أبي، ولم ينفع في مرضه الأطباء، ولم يتمكنوا من علاج مرضه، يا روحي أبي، لقد بدأ يذوب أمام عيني، وثقل عليه المرض ذات يوم، فقال لي:

- يا بني. في وقت مضى كنت ذا عزم شديدٍ، وكنت أشعر بأني في قوتي لو عصرت الحجر لأخرجت منه الماء، وها أنذا أمامك، انظر إلى ضعفي ووهني! لا أستطيع التحرك من مكاني!، فضع في ذهنك دائماً أن هذه الحياة زائلةً، وتذكر أنك قد تصل إلى ما أنا عليه، فاسلك حياتك على هذا الأساس، .. ابتعد عن السوء، وأكل الحقوق، والإضرار بالآخرين، ولتكن دوماً الإنسان الصالح، وبادر بالحسنى للآخرين!.

- وبينما كان أبي يتحدث بهذه العبارات غاب عن وعيه، وسلم روحه، وهو ينطق بالشهادتين، لا أستطيع أن أعبر عن مدى حزني وبكائي!. كنت الوريث الوحيد له، ولم يكن لي أخ آخر، فقد بقي الميراث كله لي. عندها كنت

في السادسة عشرمن العمر، .. والتف حولي الأصدقاء المتملقون والمخادعون، ولم أستطع التمييز بين الصادقين منهم والمنافقين، فخبرتي في الحياة كانت قليلةً، وربما كانت نصائح الأصدقاء المخلصين ثقيلةً علي، فعبست في وجوههم، ولم أستمع إليهم... كانت تسرني أحاديث المخادعين والكذابين الذين لم يتركوا وسيلةً لنهب المال لم يطرقوها، ولم أستطع أن أبعدهم عني، فكنت شديد التأثربهم، وبدأت أنفق أموالي بإسرافٍ، وكأنها لن تنتهي. فأكلت وتجولت وتمتعت مع هؤلاء الأصدقاء الكاذبين، ونسيت نصائح والدي، وأصبحت وكأنهلم ينصحني قبيل موته بشيء، وصرفت كل أموالي في أماكن اللهو. وانتهت النقود!...وبدأت ببيع الأرضي! حتى إذا انتهت، عمدت إلى السفينتين، فما فائدتهما في البحار، ماذا لو غرقتا في إعصارٍ؟!، فلأبِعهما إذاً، ... بعتهما وأكلت ثمنهما، وعمدت إلى قطيع الأنعام فبعته!... وهكذا كنت أنفذ أوامر أصدقائي المتملقين الذين كانوا معي، ويصفقون لي، فقد تعودت أن أظهر أمامهم

كالأبطال.

إن (الحَتَّ في الصخور تنهيها ولو كانت جبلاً). لقد انتهت ثروتي العظيمة، وذهبت في الإسراف بلا حساب، أو انتهت في جيوب المتملقين، وتفرق أصدقاء الكذب والتملق والنفاق، وبقيت بلا قروش ولا صديق أو لا أموال.

حزنت كثيراً لفقد مالي، لكني كسبت نفسي من جديدٍ، وفرحتُ لأن الغشاوة عن عيناي بدأت بالزوال ولو كان ذلك بعد فوات الأوان، وانفض عني الكذابون وأصدقاء السوء.

وهكذا أصبحتُ مع الحقيقة وجهاً لوجهٍ. كنت جائعاً! وأصبحت بلا مأوى، وتفرق عني الخدم... كنت أفكر في جوعي أكثر من مكان يؤويني. فماذا أفعل؟ وكيف أسد جوعتي؟ فأنا لم أعمل أي عملٍ، ولا أعرف كيف يكسبون ثمن رغيف الخبز!...

كنت بدأت بالسير، وقد شغلني التفكير العميق، ياإلهي ماالذي علي أن أفعله؟، ووصلت إلى شاطئ البحر وأنا

أسير بلا وعي، وعندما رأيت الحمالين هناك في الميناء وهم ينقلون الحمولات إلى السفن، لمعت عيناي، فلماذا لا أعمل حمالاً؟!. أعمل في نقل الحمولات، وأكسب مالاً يشبع بطني، كنت قوياً وذو عزمٍ...واتجهت نحو رئيس الحمالين، وسألته عن عملٍ، ..فالرجل كان يعرفني ويعرف أبي... إنه كان قد نقل الكثير من بضائع أبي!. نظر إلي متألماً، وقال:

- إنه عملٌ شاقٌّ لا يمكنكم القيام به.

قلت له:

- ولماذا؟! فأناشابٌّ قويُّ البنية والعزم.

لوى شفتيه وهو يقول:

- لا أدري إن كنت تستطيع القيام بذلك.

- طبعاً أستطيع.

كنت أظنُّ أن عمل الحمال سهلٌ جداً، ولم يعبأ رئيس الحمالين كثيراً.

- حسناً اذهب إلى المستودع، وأخبرهم أني أرسلتك، وليحمّلوك حمولةً، خذها وانقلها إلى السفينة.

ذهبت إلى المستودع فرحاً، ونظر العمال إلي بدهشةٍ، وعندما فهموا المطلوب؛ حمَّلوني حزمةً يصل وزنها عشرات الأرطال!... ياإلهي!... لقد ظننت أن رجلاي قد تكسرتا، ولكن علي أن أتحمل وتبقى مني صورة البطولة. وبدأت بالسير متأرجحاً، وعملت طول النهار في نقل البضائع إلى السفينة، وغمرتني أنهار العرق تتدفق من جسمي، وكنت أدعو أن تنتهي البضاعة وأرتاح.

عندما انتهت البضاعة كنت بائساً. لا أستطيع الوقوف على قدمي.وعندما رأيت المال استفقت من الإرباك، فقد أعطاني المعلم ليرةً فضيةً، .. بعد كل هذا العمل المضني ليرةً فضيةً واحدةً!... ماذا يمكنني أن أشتري بها؟ هذه الليرة تكفيني فقط لسد جوعتي هذا اليوم، وربما كنت ذات يومٍ أستحي أن أعطي هذه الليرة للمتسولين في الطرقات، بل كنت أقدم لهم الصدقات بملء كفي، لكنها الآن ليست إلا أجرةً آخذها مقابل نقل حمولات تزن الواحدة منها عشرات الأرطال...

عندها عرفت كم يكون إنفاق المال سهلاً وكسبه صعباً،

وجلست على حجر في جانب الطريق أبكي بكاءً مُرّاً. لم يكن في يدي ما يمكنني عمله، فقد كنت مستحقاً لهذا المصير الذي وصلت إليه بما بدَّدْتُهُ من الأموال بلا مسؤولية ولا حساب، وتركت مكاني وأنا أتمتم: (من ألقى بنفسه في هذا المصير لا ينبغي أن يبكي)، ذهبت إلى الدكان، واشتريت رغيفاً ورطلاً من الزيتون. وجلست تحت شجرةٍ أتناول طعامي، ثم استلقيت نائماً، وأنا أفترش الأرض، وألتحف السماء!.

استيقظت في الصباح متثاقلاً، كان كل جسمي يؤلمني، فالأثقال التي حملتها كانت تفوق طاقتي، يا إلهي ماذا أفعل؟ لم تكن مهنة الحمَّال سهلةً. ولم يكن عملاً يناسبني، كنت أظنه عملاً سهلاً حتى اكْتَشَفْتُ أنه لا يوجد هناك عملٌ سهلٌ.

أكلت ما بقي من الخبز والزيتون من المساء، ثم شربت الماء من النبع القريب حتى ارتويت، وبدأت أسير بخطوات مترددة، .. كنت لا أستطيع مجرد التفكير بالعمل كحمالٍ، وعلي أن أبحث عن عملٍ آخر. ولكن

أين؟...

وبينما أنا كذلك إذْ سمعتُ صوتاً ينادي: (محمود! محمود!...)، التفت نحو الصوت، فإذا هو رجلٌ عجوزٌ أنيقٌ، يقترب مني ويسألني:

- هل عرفتني؟!.

أومأت برأسي: لا!.

- وكيف لا تعرفُ مدبر شؤون قصركم السابق؟!.

- آآه... حسن.

- نعم، حسن. أحمد الله على أني وجدتك، فقد كنت أبحث عنك.

- لماذا؟!

- علمت بالذي أصابك، وتألمت كثيراً، ولي بيتٌ صغيرٌ مؤلفٌ من غرفتين ومطبخ، لكنه يكفينا، فتعال معي يا بني!.

تبعته فرِحاً، وأنا أتمتم في نفسي: هناك أناس طيبون إذاً!، وعندما اقترب حسن من بيته الذي يسكنه مع زوجته قال:

- انظر يا محمود، تعرف أنا نحبك كثيراً أنا وزوجتي. وتعلم أنه ليس لنا أولاد، فهل تكون لنا بمقام ابننا؟!. أعطيك رأسمالٍ تشتري به وتبيع، وتعمل في التجارة، وهكذا تمضي حياتنا؟!.

- أتمنى ذلك!.

ورحبت بي زوجته، ووضعني الرجل وزوجته موضع ولد له، وقابلتهما كما يقابل الولد أبويه من احترام وتقديرٍ، وبدأتُ بالتجارة بالرأسمال الذي أخذته من حسن آغا.

وذات يوم سألني حسن آغا:

- ما رأيك في تجارة الهند؟ نشتري بضاعةً من هنا، ونحملها على السفينة، ونذهب بها إلى الهند، ونبيعها هناك، ونشتري منها بضاعةً نعود بها إلى أسواقنا؟!.

- كما تريدون!.

طرح الموضوع على زوجته فقالت:

- يارجل! احمد الله أننا لسنا جائعين ولا عراةً... لماذا تخوض الصعاب بعمرك الكبير هذا، فتجارة السفر من أعمال الشباب، ولا يناسبك هذا العمل.

شاركت في الحديث، وقلت:

- أستطيع أن أقوم بهذا العمل وحدي! وسأذهب وحدي إن سمحتما لي وأتاجر.

رضخ حسن آغا لإلحاحي وإلحاح زوجته، وبعد أسبوع كنت أخوض البحر على متن السفينة وأنا واثق بنفسي، ومفعم بالهمة والنشاط، وعازم على أن أكون جديراً بثقة هذين الإنسانين اللطيفين اللذين وثقا بي، وعلَيَّ أن أعود إليهم بعد التجارة بالمال الوفير.

كنا نبيع بضاعتنا في الأماكن التي نصلها ونشتري غيرها، ونحمِلُها على السفينة، وكان على السفينة خمسة تجار آخرين مثلي، وكنا مسرورون بأرباحنا من التجارة، نجلس معاً، ونتسامر خلال السفر، ونتبادل الأحاديث عن حياتنا.

وبينما نحن كذلك؛ إذْ هبت علينا ذات يومٍ عاصفةٌ شديدةٌ، والبحر الأزرق كأنما بدأ ينتفخ ويسود، وبدأت الأمواج بالارتفاع حولنا مثل الجبال، وراوَدَنا الخوف جميعاً، فنحن في بحر لا تدرك بدايته ولا نهايته، وكان

القبطان لا يخفي قلقه أيضاً، فكان ينادي الملاحين مراراً، ويعطيهم الأوامر، ثم ينظر بعينيه الخائفتين إلى خشخشات السفينة، وارتطام الأمواج على جسمها.

كانت سفينتنا كقشرة البندق على سطح هذا البحر الغاضب، وكانت الأمواج الكبيرة ترفع سفينتنا تارة، وتخفضها تارة أخرى، وكأنها ترتفع إلى عُلُوِّ المئذنة ثم تنزل إلى قاع البئر، وكانت الخشخشات والطقطقات تصدر من كل جوانب السفينة وكأنها تكاد تتحطم.

انهارت أعصاب القبطان، وأخذ يبكي وهو ينظر إلى سفينته، وكان وجه هذا الرجل العجوز مكفهراً، وذقنه مرتجفاً، وقد بللته دموع عينيه!.

سألته قائلاً:

- خيراً إن شاء الله، ما الذي يحدث؟!.

- ألا ترى؟ السفينة تئن وتبكي وبعد قليل ستنهار!.

أصابت السفينة موجةٌ كبيرةٌ من جانبها، وكأنها كانت تنتظر انتهاء كلام القبطان، ثم تحطمت. فصرخ القبطان قائلاً:

- الكل إلى القواررررررررر.. ب. لم تعد هناك فائدة ترجى من السفينة بعد الآن!.

وبينما كان الملاحون ينزلون القوارب إلى البحر كانت السفينة تغرق في البحر رويداً رويداً، وقبل أن يتمكن أحدٌ من الركابِ الوصولَ إلى القوارب وجدوا أنفسهم في مياه البحر العميقة.

لكنني بفضل الله كنت أعرف السباحة جيداً، .. في البداية نزلت إلى الأعماق، ثم رددت نفسي ضارباً بقدمي قعر البحر فصعدت إلى سطح البحر، وكان بعضهم على وشك الغرق، فأسرعت لنجدة أحدهم، وخلالها لمست يدي شيئاً ما، ثم تبين أنه أحد القوارب التي أنزلها الملاحون قبل قليل، وحاولت كل جهدي أن أصعد القارب، وعندها امتدت يدٌ من القارب لمساعدتي.

اعتليت القارب، وكان أحد البحارة قد نجا بنفسه، ولم يكن يبدو أن هناك ناجياً غيرنا، لكنني على الرغم من ذلك ناديت، فربما كان هناك من يحاول البقاء على سطح الماء، فيسمع نداءنا، فيستغيث. ونادى البحار الصديق،

وتجولنا بالقارب في الأطراف، لكننا لم نسمع سوى أصوات الأمواج العالية.

قال صديقي:

- كنت أود أن لا أخطئ كثيراً، لكن مع الأسف لم ينجُ أحدٌ غيرنا.

كان فراقاً حزيناً، وأصبحت أسمارنا مع أصدقائنا التجار أحاديث وذكريات خلال لحظات... كان أحدهم سميناً، وقد تحدث لي عن أهله وأولاده، وعن بناته المنتظرات ألبسة الحرير عند عودته.

وأما الآخر فكان يتحدث أنه كان يعمل في السفينة طوال حياته، وأنه لن يعود إلى السفر مرةً أخرى بعد عودته إلى بيته هذه المرة، وسيفتح متجراً يعمل فيه في مكان إقامته.

كنت أتذكر كل هذا، وكانت الحياة تبدو لي غريبة كثيراً، فما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت!... فقد الأمل في العثور على أحدٍ، وبدأنا نحرك المجاديف، ونوجه السفينة نحو وجهةٍ محددةٍ.

كان اسم البحار الناجي محمداً، وكنا نتبادل الأحاديث

معاً ونحن نحرك المجاديف. وأمضينا الليل كله وسط البحر، وفي الصباح، قبيل الظهيرة، شاهدنا شاطئاً يلوح من بعيد، ودبَّ فينا حماس الفرح، وتشبثنا بالمجاديف كالمجانين، حتى وصلنا الشاطئ عصراً.

خرجنا إلى البر فرحين، وكان على الشاطئ بعض الناس، وكانوا ينظرون إلينا في دهشةٍ، وشرحنا لهم ما جرى لنا، فكانوا أهل نَجْدَةٍ وخَيْرٍ بارك الله بهم، فقد قدموا لنا ما نستطيع به العودة إلى البصرة، وبعد عشرة أيام كناعلى ظهر سفينةٍ متجهةٍ إلى البصرة، ووصلناها آمنين.

سِرْتُ في الطريق نحو البيت حزيناً، كيف أستطيع الحديث عن أولئك التجار الطيبين وغرقهم مع أموالهم جميعا؟!، مَنْ يداري أحزانهم؟!... وأصابني القلق عندما وصلت بي الأفكار إلى الشارع الذي يقع عليه بيتي.

لم أصدق ما رأيت، ولم يكن البيت في مكانه، وكان موقع البيت خالياً، وكان سواد الحريق يعم المكان...

هتف بي أحد الجيران وقد رآني أقف هناك:

- محمود، هذا أنت، هل عُدْتَ يابني؟!

كنت أعرف هذا الرجل، فقلت:

- نعم يا عم، ما الذي حدث لبيت حسن آغا؟!.

دَمِعَتْ عينا الرجل العجوز وهو يقول:

- لا تسأل يا بُنَيّ. لقد نشب في البيت حريقٌ، ومات حسن آغا وزوجته!.

وكل ما أذكره أني صرخت قائلاً:

- ماذاااااا؟، ثم فقدت وعيي من الحزن، ولم أستيقظ إلا على صوت الجيران، وقد أحاطوا بي لتعزيتي!.

وقبل مغادرتي دعوت لهذين العجوزين، ثم ذهبت إلى الميناء، وانضممت هناك إلى طائفة الملاحين في إحدى السفن، فأمضيت سنواتٍ أتجوَّل في البحار، وهكذا ... حتى أصابنا ما تعرفون!.

كان هدايت وأحمد مراد يستمعان باهتمام لحديث محمود، حتى إذا فرغ بادره أحمد مراد، وهو يقول:

- كان الله معك، وآجرك في مصيبتك!. والآن جاء دور هدايت في الحديث.

وعلى الرغم من أن هدايت حاول أن يتجنب الحديث وهو يقول: ليس لدي ماأحدثه؛ فقد اعترض محمود وأحمد مراد وقالا:

– نعم نحن بانتظار حديثك!.

وهكذا بدأ هدايت بالكلام...

هدايت ومصائبه

لم أكن محظوظاً مثلكم، فقد مات والدي قبل ولادتي، وولدت يتيماً، وتوفيت أمي أثناء ولادتي، وأخذني أحد الأقارب البعيدين، وعانيت منهم الأذى حتى تمنيت أنهم لم يعتنوا بي، وكنت من الأموات.

هذا القريب البعيد كان يعاملني كما يعامل العبيد، وأمضي حياتي عنده نصف جائع ونصف شبعان، ويميزني بين أولاده بالأعمال كلها، هيا يا هدايت اجلب لنا الماء، هيا يا هدايت احمل هذه الأثقال، لا تتأخر يا

هدايت!...

كان الروح يبلغ مني إلى الحلقوم، حتى أكاد أختنق وأموت، ولو كنت خادماً عنده لأصبحت غنياً بالأموال التي أكسبها من أجرة الأعمال التي أقوم بها، ..لكنني كنت أبيت طاوياً على بطني من الجوع.

تحملت تلك الحياة حتى الخامسة عشر من عمري، ولم أستطع التحمل أكثر مما تحملته، فهربت. أليس لي فمٌ واحدٌ؟! أشتغل وأكفيه، فأنا لم أكن بالشخص الكسول...

عملت متدرباً عند حدادٍ، وكان الحداد يبدو قوي البنية، ذا عزمٍ شديدٍ، وحين رآني أبكي في حالةٍ من البؤس؛ سألنيٍ عن مشكلتي، فتجنبت الحديث بدايةً، لأني كنت أظن أن كل الناس مثل ذلك القريب البعيد الذي عاملني بسوءٍ. لكنه كان لطيفاً على غير ما توقعته، فأفلح أن يجرني للكلام!، وما إن علم أنني شخصٌ مسكينٌ يتيمٌ ليس لي أحد؛حتى دَمِعَتْ عيناه من الحزنِ، وتأثرتُ من حزنه علَيَّ... قال لي:

- يمكنك يا بُنَيَّ أن تعمل عندي، فأنا كما ترى أعمل وحيداً ليس معي أحدٌ، أعلمك هذه الصنعة، وبفضل ذلك تأكل ولا تحتاج أحداً.

وهكذا بقيت عنده قرابة شهرٍ، ولأول مرةً أدركت الشبع، ولأول مرةٍ وجدت من يعاملني كإنسان، .. لقد أحببته كما يحب المرء أباه، .. لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً.

فذات يوم تعب هذا الإنسان الطيب وهو على رأس عمله، وهزَّ الأطباء الذين عاينوه رؤوسهم في أسفٍ، فعلمت أن معلّمي لن ينجو من هذا المرض، استمر مرضه طويلاً، واضطر معلمي إلى بيع محله وأدوات عمله؛ لأنه لم يعد يملك أجرة الأطباء وثمن الأدوية، ولزمه المرض حتى مات، وعدت من جديدٍ وحيداً. كنت أتجول مفكراً بما يمكن أن أفعله، حتى وصلت إلى الميناء. كان هناك أحد القبطان يبحث عن ملاحٍ لسفينته، وكان يدفع أجراً جيداً، فدخلت السفينة كملاح.

كنت أعمل بهمةٍ وإتقانٍ، فأنا كما قلت لكم شخصٌ لا أملّ من العمل، ولم تكن ترهبني الصعوبات، فلقد

أمضيت صغري في ضيق ومشقة وتعب، ورضي عني القبطان كثيراً حتى جعلني رئيساً للملاحين، ويبدو أن شخصاً كان ينتظر ليصبح رئيس الملاحين، ولم يَسُرَّهُ أن أصبح رئيس الملاحين في فترةٍ قصيرةٍ. وذات يوم خرجنا إلى بحرٍ واسعٍ، وكان يخطط إلى تَمَرُّدٍ بالاتفاق مع بقية الملاحين، لكن الخطة فشلت، إذْ داهمنا طارئٌ قبل أن ينفذ خطته.

أحمد مراد:

- وما هذا الطارئ؟.

- عندما كانت سفينتنا تشق المياه في البحر الواسع شعرنا بصدمةٍ على جسم السفينة في ظلام الليل.

سألني القبطان:

- ترى هل اصطدمنا بصخرةٍ ما؟!

- لاأعتقد ذلك!. فأنا لم أحسَّ بشيءٍ.

لكن القبطان الخبير لم يكن على خطأ، فقد جاء أحد الملاحين يلهث وهو يقول:

- ياقبطان! يا قبطان! كأننا اصطدمنا بشيء ما قبل قليل،

تعالت بعدها أصواتٌ شبيهةٌ بالاستغاثة.

نظر القبطان في وجهي وكأنه يقول:(ألم أقل لك؟)، ثم أوقف السفينة، وبدأ يبحث حول السفينة بواسطة الزورقين اللذين أنزلهما إلى البحر.

كنا نرفع أصواتنا وننادي لعلنا نسمع صوت استغاثة، وعلى ضوء القمر سرنا قليلاً إلى الأمام، حتى لاحظنا وجود سوادين ملتصقين بزورقٍ جانح، وهما يستغيثان.

- وجهنا الزورقين نحوهما، والتقطنا رجلين من بين الحطام المنقلب، وحملناهما فوراً في الزورق، وعدنا بهما إلى السفينة.

وتبين أنهما تاجران بقيا على قيد الحياة من السفينة الغارقة، بقي المسكينان يصارعان الجوع والعطش في البحر ثلاثة أيام، وأقبلا على الطعام المقدم يأكلان بشهيةٍ كبيرةٍ، ثم تحدثا عما حدث لهما.

كان قبطاننا إنساناً رائعاً، وأبدى لهما شفقة كبيرة. وكان التاجران ممتنين:

- شكراً لك أيها القبطان! لقد أرسلك الله لإنقاذنا.

وعندما قال القبطان:

- لقد شعرت أننا اصطدمنا بشيء ما، لكنني لم أسمع أيَّ صوتٍ، وسمع أحد الملاحين صوتكما، فأخبرني.

قال التاجران:

- وأين هو ذلك الملاح؟ لنكافئه على عمله الخير معنا.

وجاء الملاح، فأخرج التاجران كيسين من داخل لباسهما المبلل، وقدم كل واحدٍ منهما ليرةً ذهبيةً لهذا الملاح، واتسعت عيون الملاحين كصحن الفنجان عجباً عندما رأوا كيس الذهب.

خلال الحديث؛ جفف التاجران جسميهما، ولبسا الثياب الجافة التي قدمت لهما، ودخل الملاح الذي كوفئ إلى الداخل، وقال:

- أيها القبطان! هل أستطيع أن أتكلم معكم على انفراد؟

أجابه القبطان:

- وهل عندنا شيء نخفيه؟ هيا تكلم، فكل الموجودون هنا هم أصدقائي.

احمر وجه الملاح وتحدث بحرجٍ:

- أيها القبطان! إنكم على وشك خيانةٍ تمُرُّ بكم، فهؤلاء الملاحون يريدون السطو على ذهب التاجرين اللذين أنقذناهما، إنهم يستعدون للعصيان، وسيقتلونكم أنتم والملاحين الخمسة.

اصفر وجه القبطان، واهتزت لحيته وهو يهمهم:

- نعم؟! نعم؟! من؟!وماااذا يريدو..ن.. فع...له؟!.

- لقد اتفق جميع الملاحين على هذا القرار، وهددوا من لايريد مشاركتهم، فاضطر جميع الملاحين الوقوف مع الأشرار!.

- ألا يعلمون أن عقوبة ذلك هو الإعدام؟!.

- يعلمون ياسيدي! ولأنهم يعلمون فإنهم قرروا قتلك أيضاً، إنهم يريدون ألا يتركوا أي دليل خلفهم.

مسح القبطان لحيته، وتمتم:

- الوضع سيئ ياأصدقائي.

قلت:

- يجب أن نستعد للدفاع عن أنفسنا!.

سأل القبطان بحزنٍ:

- وما الذي يمكننا فعله؟.

- وهل نتركهم يقتلوننا كما يحلو لهم؟!، نتصادم معهم، وندافع عن أنفسنا، ولن يكون النيل منا سهلاً.

وأيدني التاجران:

- طبعا، علينا أن نواجههم ونريهم من نحن!.

قال الملاح الذي جاءنا بالخبر:

- وأنا معكم أيضاً.

قدم القبطان لكل واحدٍ منا سيفاً من السيوف التي كانت في مقصورته، ثم قال:

- حذار أن تلفتوا انتباههم، نأتي ببرميل أو برميلين من الماء، وبعض الأطعمة إلى هنا، فالدفاع عن أنفسنا في المقصورة أسهل، وعلينا أن لا نخرج من المقصورة!.

وهكذا خرجت مع الملاح الذي انضم إلينا، وأصدرت بعض الأوامر التي تتعلق بالسفينة لإشغالهم... كانت نظراتهم عدوانية، وقد التزموا الصمت والكتمان حتى ساعة الصفر، وبدؤوا بتنفيذ الأوامر التي أمرتهم بها بهدوء، فتمكنت خلالها من نقل برميلين من الماء وكميةً

كبيرةً من الطعام إلى المقصورة، ويبدو أن الشكوك بدأت تثور بين المتمردين ونحن ننقل الكمية الأخيرة من الطعام، واقترب منا (راسم) وهو زعيمهم في التمرد، وقال متذمراً:

- ما الذي تنقلونه هكذا؟.. لم تتركوا شيئاً للملاحين!.

فأجبته:

- الطعام يكفي للجميع، وهذا أمر القبطان.

- لن أتلقى الأوامر من ذلك العجوز بعد الآن.

- إن ذلك يعنيكم، ولا يعنيني، وعند النزول إلى البر يمكنكم أن تتركوا السفينة، وتستقلوا عن القبطان!.

تكشر راسم بوقاحة:

- لن نصبر حتى ذلك الحين.

- فماذا أنتم فاعلون إذاً؟!.

- هذا ما سأفعله... ووجه لي ضربة بقبضة يده.

سرعان ما مِلْتُ برأسي، ونجوت من ضربته. لكنه صرخ للآخرين:

- اهجموا.

فأسرعت يدي إلى قبضة خنجري، وصرخت:

- إياكم أن تقتربوا.

تراجعوا بعض الخطوات، وسارعت الخطى مع الملاح الصادق إلى المقصورة، وفي تلك اللحظة انتبهنا أن باب المقصورة قد تم احتجازه، والصيحات المخنوقة تخرج من الداخل.

وأحاطونا بنا مرةً أخرى، وكانت أيدي بعض الملاحين هذه المرة محملة بالعصي وقضبان الحديد، وبدأنا بالصراع، لكنهم كانوا من الكثرة بحيث فقدت وعيي من الضربات التي انهالت على رأسي، وعندما فتحت عيني رأيت القبطان مقيد اليدين والرجلين، وقد ألقي بالمسكين على الأرض ورجلاه مقيدتان على الكرسي، وكان يئن، وقد تلطخت الأرض بالدماء التي نزفت من جرح في رأسه، وانحنى عليه راسم، وأخذ يفتش جيوبه، وأخذ كيس الذهب الذي وجده، ووضعه في جيبه ضاحكاً، وعندما رأى نظرة الملاحين العدائية له؛ هدأهم قائلاً:

- لا تقلقوا سوف نتقاسمه.

كان التاجران مستلقيين على الأرض مقيدين، وكان واضحاً أن أكياسهما قد سلبت أيضاً، وأصدر راسم أمراً وهو يرفس القبطان برجليه:

- هيا يا أولاد، اقتلوهم جميعاً، وتخلصوا من أجسادهم.

اعترض عليه أحد الملاحين:

- ولماذا نلطخ أيدينا بدمائهم! نترك الخمسة جميعاً في جزيرةٍ خاليةٍ. وندعهم يواجهون قدرهم ومصيرهم.

حك راسم رأسه:

- نعم هذا صحيح.

وبعد يومين أرسلونا بزورق إلى إحدى السواحل، ومن حسن حظنا أن دوافع الرحمة تحركت عند أحدهم، فقَطَّعَ قيود أحدنا، وترك لنا سكيناً.

كان ملاحنا الصادق هو الذي تحرر من قيوده، وكان اسمه نوري... قطع نوري قيودنا جميعاً، وعندما تحرر القبطان ذهب إلى الشاطئ، وغسل الدم من وجهه ورأسه بماء البحر، ثم قال:

- لقد أكرمنا الله مرةً أخرى، فهؤلاء الأشخاص كان يمكنهم أن يفعلوا بنا كلَّ شَرٍّ، ويقتلوننا نحن الخمسة، ويلقوا بنا في البحر، لكن الله أنقذنا فأخرجونا إلى هذه الجزيرة.

قال أحد التاجرين:

- لا تحسبوا أننا نجونا، فهذه جزيرةٌ خاليةٌ، ألا ترون هذه الطيور التي تزداد زقزقةً، وتطير فوقنا وكأنها لم تر إنساناً من قبلُ.

انضم التاجر الآخر إلى الحديث:

- لا بد أن الله سيعيننا، ونحمد الله على أننا نتنفس حتى الآن!.

لم أعد أستطيع الصبر، فقلت:

- معك حق يا عم منصور، سيفتح لنا ربنا باباً للنجاة إن شاء الله... هيا يجب أن نتحرك، ونتوغل في الجزيرة، ونستكشفها، ونتدبر أمرنا فيها!.

قال القبطان:

- الحق معك يا هدايت، لا يكفي أن نقف هكذا، ونكتفي

بالكلام. هيا بنا ولنتحرك!.

سرنا على الشاطئ... ثم تقدمنا نحو الغابة، كانت الغابة تمتد أمامنا كالبساط الأخضر، وكان هناك صمتٌ كبيرٌ موحش، وكانت الأشجار المتطاولة مثل المآذن تمنع وصول أشعة الشمس إلى بعض أماكن الغابة. وتقدمنا متعثرين في الأحراش، ونحن نباعد بين الأغصان، حتى انشقت الغابة عن مكانٍ واسعٍ، تتوسطها تلةٌ صغيرةٌ، وصعدنا إلى قمتها، .. كنا نلهث جميعاً، وكان التاجر السمين خليل أكثرنا تعباً، فتمتم وهو يتنفس بسرعة:

- لن أتحرك من هنا إلى أي مكان آخر بعد الآن.

قال نوري:

- إن أردتم ذهبت أنا وهدايت إلى الأسفل نستكشف المنطقة، ثم نعود فنخبركم.

أجاب القبطان:

- لا داعي لذلك، يمكننا أن نستكشف الأطراف من هنا أيضاً، ثم إنه لا يصح أن نبتعد عن بعضنا في هذا المكان الخالي، فنحن لاندري ما الذي يواجهنا، ففي الوحدة

قوةً، لذلك يجب أن نتحرك معاً إلى أيِّ مكانٍ نتوجه إليه.

تدَخَّلَ العم منصور وهو يقول:

- إن قبطاننا على حق فيما يقول، يجب ألا نبتعد عن بعض، وسيكرمنا الله، ويعيننا.

استعرضنا ما حولنا، ورأينا أننا في جزيرةٍ أطرافها شواطئ، والجزء الداخلي منها مغطى بغابةٍ خضراء...

قال القبطان:

- لقد تعرفنا على المكان الذي نحن فيه. والآن هيا نبحث عن الماء والطعام.

هبطنا إلى الأسفل، وبعد بحثٍ طويلٍ وجدنا الماء المنسابَ من بين الصخور، وشربنا جميعاً من هذا الماء حتى ارتوينا، ياإلهي كم كان ماء عذباً ولذيذاً وبارداً كالثلج.

قال نوري:

- أشكر لله شكراً لا حدَّ له!. فأنا لم أشرب ماء عذباً لذيذاً كهذا.

كانت ألسنتنا تلهج بالشكر لله، وبدأنا بعدها بالبحث

عن الطعام، ومضت مدةٌ قبل أن نسمع منصور يقول:
- هاي أيها الأصدقاء، تعالوا إلى هنا تعالوا!.
كانت شجرة الجوز الهندِ العالية تمرح فوقها القردة.
صاح خليل:
-هذا رائع، إنه جوز الهند، ولكن كيف سنقطفه؟!.
قال القبطان:
- هذا سهل! انظروا..
وتناول حجراً ورماها نحو الأعلى باتجاه القردة. أووووه لا تسأل عن الصخب والضجيج الذي حدث في أعلى الشجرة. بدأت القردة ترمي جوز الهند إلى الأسفل، والقبطان يصرخ وهو يحاول حماية رأسه:
- أرجو أن تنتبهوا إلى رؤوسكم.
اجتمع لديهم قرابة عشرين ثمرة من جوز الهند في وقتٍ قصيرٍ، واجتمعنا تحت إحدى الأشجار، وبدأنا نكسر ونشرب من ماء جوز الهند.
بقينا في هذا المكان خمسة أيامٍ، تناوب خلالها شخصان لمراقبة الساحل باستمرار، آملينَ أن تمر سفينةٌ ما، فتنقذنا.

صباح اليوم الخامس كانت نوبة منصور ونوري، وقبل توسط الشمس في كبد السماء رأينا منصور يجري نحونا، وهو يهز بطنه الكبير، ويصرخ:

- تعالوا، تعالوا! إنها سفينة.

ركضنا نحو الساحل كالمجانين، كانت السفينة تمر قبالة الجزيرة، وصرخ القبطان:

- هيا أشعلوا ناراً!.

وبينما كان يحاول إشعال النار كنا نلوح نحو السفينة ونصرخ، حتى أعاننا الله، ورآنا أصحاب السفينة، فحولوا مسيرها نحو الساحل. آه لو رأيتم كم كانت فرحتنا!، لقد كنا نصرخ، ونعانق بعضنا كالمجانين.

وبعد مدةٍ قصيرةٍ ركبنا السفينة، وابتعدنا عن الجزيرة، وأبدى القبطان والملاحون اهتماماً كبيراً بنا.

بعد يومين من ركوبنا السفينة تقابلنا مع سفينةٍ أخرى، لم تكن غريبةً عنا... إنها سفينتنا القديمة التي استولى عليها المتمردون.. لم يكن يظهر على متن السفينة حركةٌ. نادى قبطاننا قبطانَ السفينة التي أنقذتنا:

- إنها سفينتي.

وكنا قد شرحنا لهم ماأصابنا من قبل، فأمر القبطان الذي أنقذنا ملاحيه:

- انتبهوا جيداً، فالسفينة وإن كانت لا تبدو عليها أية حركةٍ، فإنها ربما تحمل خطراً في داخلها، فعليكم أن تحتاطوا.

وتسلقنا السفينة ومعنا الملاحون الآخرون، وهم يحملون السيوف والخناجر، وأصابتنا الدهشة جميعا عندما رأينا ظهر السفينة، وعليها جثث المتمردين. قال قبطاننا بعد أن نظر إليهم طويلاً:

- إنها عدالة الله، فالتنازع على المال دفعهم إلى الاقتتال، فقتل بعضهم بعضاً.

وأضاف القبطان الآخر:

- ربما تتحطم جرة الماء في طريق الماء!، لقد نال هؤلاء جزاء ما ارتكبوه، والجزاء من جنس العمل.

واسترد التاجران منصور وخليل أكياسهما من الذهب من بين الأشقياء، وهما يتهامسان:

- لقد كانت أموالنا حلالاً.

وأردف قبطاننا:

- أما أنا فقد كان كل مالي وسفينتي حلالاً، وصدقوني لقد كان يراودني إحساس بلقاء سفينتي، ولم يفارقني هذا الأمل أبداً.

وهكذا ألقينا أجساد الملاحين المتمردين في البحر، ونظفنا السفينة. ثم تابعنا السير حتى وصلنا البصرة، وابتعدت عن البحر مدةً من الزمن، ثم عدت ملاحاً إلى السفينةحيث حلت بنا هذه المصيبة التي نحن فيها.ثم ختم قصته وهو يقول:

- وما بعد ذلك عشناه معاً.

قال محمود وأحمد مراد:

- إن المصائب التي مررتَ بها لم تكن قليلةً ياهدايت. وسننجو من هذا أيضاً بإذن الله.

وصاحوا معاً:

- إن شاء الله.

فرغ محمود من صناعة رمحه، وقال:

- هاهو، إنه رمحٌ كاملٌ. والويل لمن سيواجهنا من الأعداء...لن نخشى من السكان المحليين ولا الحيوانات المفترسة بعد الآن.

تلمظ هدايت بفمه:

- ثم إنه سلاح جيدٌ للصيد...نصطاد به الأسماك، وحيوانات الصيد.

وسأل أحمد مراد في حيرةٍ:

- وكيف يتم صيد السمك بالرمح؟.

ضحك هدايت:

- سهلٌ جداً...نقف على الشاطئ، وعندما نشاهد سمكة نرميها بالرمح فنصطادها بسهولة.

- وهل حدث أن اصطدتم سمكاً بالرمح؟

- وكيف لا، وإلا كيف انبثقت هذه الفكرة في أذهاننا!.

قاطعه محمود:

- لدينا الآن ثلاثة رماح. هذا جيد، لكن ياأولاد نحن بحاجة أيضاً إلى القوس والنِّبال، حتى نصيب العدو قبل أن يقترب منا، ونتمكن من الصيد.

صفق هدايت بيديه فرحاً:

- نعم!...نعم!...نحتاج للقوس والنبال أيضاً، هيا نبحث عن أغصان مناسبةٍ لصنع القوس والنبال.

وانطلق الأصدقاء الثلاثة وهم يحملون الرماح، وبدؤوا رحلة البحث في الغابة، وبعد قليل تنادَوا فرحين بأنهم وجدوا مايطلبونه:

- هاييييي أيها الأصدقاء!. لقد وجدت قطعة رائعةً لصناعة القوس!...

- وأنا أيضاً.
- وأنا أيضاً!...
- سيكون قوسي أفضل قوسٍ.
وانهمك كل واحدٍ بتقليم الغصن الذي عثر عليه.
وبينما هم كذلك قال محمود:
- أيها الأصدقاء ما رأيكم في تقسيم العمل بيننا، أحدنا يجهز الأقواس، والآخر يجهز النبل، والثالث يجمع اللبلاب للوتر؟

قال أحمد مراد:
- إنها فكرة جيدة. أنا أتولى صناعة الأوتار.
قال محمود وهو ينظر إلى القوس بيد هدايت:
- وأنا أقطع القضبان من أجل النبل؛ لأني أرى أن هدايت يتقن صناعة القوس. فليصنع هو الأقواس.
ترك أحمد مراد ومحمود الأغصان من يديهما، ودخلا الغابة لجمع اللبلاب، ومايحتاجونه لصناعة النبال.
كانت الغابة مليئة بأشجار النخيل ذات الأوراق الإبرية، والأشجار المخيفة ذات الأوراق الحادة كالسكاكين،

والأغصان المتشابكة والقصب. قال محمود:

- حذار ياأحمد مراد!. انتبه ياصديقي الحبيب، فهذه الأماكن مغطاةٌ بأفخاخ الموت، إن وقعت فيها فستبتلعك مباشرةً، يجب أن تنتبه من الأشواك المرعبة والقُرَّيص أيضاً، وانتبه للأرض جيداً، فقد تكون فيها حشراتٌ مختلفةٌ، ونملٌ بأحجامٍ كبيرةٍ وأفاعٍ.

نظر أحمد مراد إلى صديقه بعينٍ مِلْؤُها الحُبُّ:

- حياك الله يامحمود. إني أنتبه إلى المكان الذي أمر فيه، لكنك كيف تعرف الغابة جيداً إلى هذا الحد؟.

هدأه محمود قائلاً:

- كيف لا أعرفه ياأخي لقد أجبرت ذات مرةٍ على الخروج إلى مثل هذه الجزيرة، واكتسبت خلال فيها شيئاً من الخبرة. انظر مثلاً، يجب أن تنتبه أيضاً لهذه الأشجار التي تراها، فهذه تنشر رائحةً سامةً تسمم الإنسان الذي ينام تحتها، وبعض السكان المحليين يمسحون رؤوس حرابهم ونبالهم بالسائل الذي يخرج من هذه الشجرة.

- يا ويلي!

- نعم ياويلي، هيا نبتعد من هنا، فقد بدأت أشعر بتلك الرائحة.

ابتعد الصديقان مباشرة من هناك .وقال محمود:

- انظر إلى هذه القضبان، إنها مناسبةٌ جداً لصناعة النبال، فهي رفيعةٌ ومتينةٌ. سأبدأ بقطعها، واذهب للبحث عن اللبلاب، ولكن احذر اللبلاب في بعض الأماكن. فإنك إن دخلت بين شباكها التي تتسلق أغصان الأشجار، وتلتف حولها، وتشكل الحواجز؛ لن تستطيع الخروج منها مرة أخرى، وقد تحتاج لساعاتٍ طويلةٍ لتقطيعها بالسكين.

- يااه. هل اللبلاب مخيفٌ إلى هذا الحد؟!.

- تعال واسأل هذا السؤال لهذه الأشجار الطويلة الملقاة على الأرض. اللبلاب هو أكثر نباتات هذه الغابة رهبةً. فنبات اللبلاب المتسلقة تبدأ بالتسلق على الأغصان القوية مباشرة، وتلتف حول الأغصان، وتنشر فروعاً جديدةً، بعضها تتسلق إلى أعالي الشجر، وتتكاثر هناك مغطيةً مساحاتٍ واسعةً، وبعضها تزحف على الأرض

كالزواحف، وتلتف متشابكةً بقوةٍ حول جذوع الأشجار الضخمة والأحراج وتغطيها بالكامل. والأشجار الضخمة لا تتحمل التفاف اللبلاب حولها، حيث يقطع اللبلاب المياه التي تمتصها الجذور عن أعالي الشجر والأغصان والأوراق، فتجف هذه الأغصان والأوراق، ثم تموت الشجرة العملاقة من العطش!. هل فهمت الآن مدى خطورة نباتات اللبلاب؟

- فهمت!. وأنا سأجد ذلك اللبلاب الجاف على الأرض فأقطعه.

ضحك محمود:

- جميلٌ جداً، إنك تفكر بشكل جيدٍ، هيا كان الله في عونك!.

وبينما كان محمود يقطع الأغصان لصناعة النبل؛ كان أحمد مراد يبحث عن اللبلاب الجاف في الأرض، ولم يلبث طويلاً حتى وجد اللبلاب المفيد لصناعة الأوتار، فبذل جهده ليجمع أكبر كميةٍ ممكنةٍ منه، وعند عودته وجد محموداً ينتظره بما جمعه من الأغصان.

قال محمود لأحمد مراد ممازحاً:

- ماشاء الله، لقد قطعت كل اللبلاب الذي في الغابة.

فرد عليه مجيباً:

- لكنك لم تترك غصناً في الغابة، مسكينة تلك الأشجار، كانت تقول لبعضها مشبرة إليك:هذا قاطع أغصاننا.

مشى الصديقان بين الأغصان والأحراج ضاحكين، وعندما وصلا إلى هدايت قالا:

- هاهي الأسهم والأوتار، أتينا بها إليك، نظر هدايت إلى ما ألقوه إلى الأرض من اللبلاب والأغصان، وقال:

- هذا رائعٌ جداً!، لقد أقلقني تأخركما، هيا لنجهز النبال والأوتار، ونخرج إلى الصيد؛ لأني جعت كثيراً.

- أما أنا؟ فيمكنني أن آكل حوتاً أو بقرةً وحدي.وأنت ياأحمد مراد؟.

ضحك أحمد مراد:

- ماذا ينقصني عنكم؟ ولم لا أجوع أنا؟ لقد جعت كثيراً. هيا اتركوا النبل والأوتار الآن،واصطادوا السمك،

وأرونا قدراتكم، ثم نشعل النار، ونشوي الأسماك التي اصطدناها.

عبس محمود بوجهه:

- إني أحب ذلك كثيراً، لكن ألا يرون الدخان المتصاعد من النار التي سنشعلها فيأتوننا؟!.

قال هدايت وهو يحك رأسه:

- هذا صحيحٌ. في النهاية ربما يضعنا المتوحشون في السيخ، ويشوواننا بدل السمك!...

سأل أحمد مراد:

- لكن ماذا نفعل؟!.

أجاب محمود:

- لنشبع الآن بطوننا بالفواكه والجوز الهندي، وفي المساء نصطاد السمك، وعند هبوط الظلام نشعل النار ونشويها. فلا ينتبهون إلى الدخان في الظلام.

فرك هدايت بطنه، وقال:

- آه يا معدتي المسكينة! يجب أن تصبري مدةً أخرى، فقط حتى المساء.

ثم انحنى إلى معدته كأنه يستمع لصوت معدته، وأضاف قائلاً:

- ماذا؟! بدل الفواكه تريدين سمكاً أو غزالاً أو أرنباً؟ معك حق، لكن يجب أن نصبري، وإلا لن نستطيع أكل السمك أو الصيد أبداً.

ضحك كلٌّ من أحمد مراد ومحمود من حالته تلك، ثم انطلق الثلاثة إلى الغابة ليقطفوا الفواكه وجوز الهند، ثم أكلوها في الصحة والعافية، ثم انهمكوا في صناعة النبال، وصنعوا أوتار الأقواس، وكان من حصة كل شخص ثلاثون نبلاً. صفوا هذه الأسهم في أكياس صنعوه من اللبلاب، وعلقوا الأكياس على أكتافهم بالحبال التي صنعوها من اللبلاب أيضاً.

جعلوا إحدى الأشجار هدفاً، وأخذوا يرمون عليه النبال، ويتدربون، وخلال ساعاتٍ أصبحوا قادرين على إصابة الأهداف، قال أحمد مراد:

- هيا يا أصدقائي لصيد السمك.

قال هدايت مظهراً فرحه:

- إن هذا أجمل خبرٍ سمعته اليوم! لأن معدتي لم تكن تشبع بالفواكه بأيِّ شكلٍ من الأشكال، كانت نفسي تشتهي السمك المشوي كثيراً.

وضحك محمود:

- أيها الشره الكبير، وهل أفواهنا لا تتلمظ لأكل السمك!.

قطع أحمد مراد حديثهم قائلاً:

- إذاً لماذا نضيع الوقت وننتظر؟!، هيا إلى النهر... اصطادوا السمك الكثير.

حمل الثلاثة رماحهم، وذهبوا إلى ضفة النهر، والنهر كان يجري مُتَمَوِّجاً. كان أحمد مراد يتابع أصدقاءه، ومحمود وهدايت يراقبان النهر بانتباهٍ كبيرٍ، وقد أمسكا رمحيهما، واستعدا لرميهما في أية لحظةٍ، لا يعرف كم من الوقت انتظرا بهذا الشكل، حتى بدأ صبر أحمد مراد ينفد، وإذا بهدايت يرمي برمحه في النهر فجأةً، وهو يصيح:

- أصبتها!، أصبتها!.

وبدا على مسافةٍ قليلةٍ سمكةٌ كبيرةٌ تظهر على وجه الماء،

وهي تحمل الرمح على ظهرها، وتتخبط. خلع هدايت ملابسه على الفور، وقفز إلى الماء، وأخذ يسبح نحو العصا التي كانت تجري مع الماء، وعاد بعد قليلٍ وقد التقط عصاه مع السمكة، .. وقبل أن يخرج من النهر كان رمح محمود هذه المرة ينطلق نحو سمكةٍ كبيرةٍ أيضاً، .. ترك هدايت عصاه على الضفة وهو يقول:

- لا داعي للنزول إلى النهر، وسبح نحو الرمح الذي رماه محمود.

أثناء عودته برمح محمود؛ كان أحمد مراد ومحمود ينزعان صيد هدايت من رأس الرمح.. كانت سمكة قوية كالفولاذ، تزن حوالي ستة أرطال، وعلى الرغم من اختراق جسمها بالرمح كانت السمكة لا زالت تتخبط. لم تكن سمكة محمود تختلف عن أختها، ونظفوا السمكتين سريعاً، وانهمك أحمد مراد بجمع قطع الأغصان، وانشغل محمود وهدايت بتجهيز سمكتيهما كل واحدة على قضيب، وأصبحتا جاهزتين للشوي.

ونظر محمود إلى السماء وقد داهمه الظلام، فقال:

- انتظروا قليلاً، فإشعال النار قبل أن يسود الظلام بشكلٍ جيدٍ يمكن أن يكون خطراً.

وأيده هدايت قائلاً:

- لقد انتظرنا كثيراً، فلننتظر قليلاً.

اشتد الظلام، فأشعل محمود النار، وكان الأصدقاء الثلاثة أمام النار ينظرون إلى السمكتين بشهيةٍ. وارتفعت ألسنة النار، وأصبح الجمر جاهزاً، وبدأت السمكتان تنضجان، والدهن يسيل منهما على الجمر، فيصدر أزيزاً، ويكاد الشباب يفقدون صبرهم. ونضجت السمكتان، ووضعوهما على قطع الأغصان.

(هيا سموا باسم الله)، وبدؤا بالأكل، ولم تكد تمضي لحظاتٌ حتى غدت السمكتان أشواكاً. شكروا الله كثيراً، وغسلوا أيديهم، وصلوا الصلاة، ثم استغرقوا في نومٍ عميقٍ.

كان الثلاثة ينامون براحةٍ تامةٍ، ..كانت الأصوات تملأ الغابة، وتمزق سكون الظلام، لم يكن الثلاثة يبالون بصرير الصرصار، ولا زئير الأسد وأصوات السباع.

كانت غارقين في أحلامٍ جميلةٍ أشاعت البهجة في نفوسهم، وملاتها بالرضى، .. لقد كانوا سعداء جداً، وكأنهم في بيوتهم.

الهجوم المباغت!

استيقظوا صباحاً قبل شروق الشمس. وسأل أحمد مراد:

- ماذا نعمل اليوم أيها الأصدقاء.

أجاب محمود:

- نذهب إلى شط البحر أولاً، وننتظر سفينةً عابرةً، فلا يمكن أن نبقى هنا بشكلٍ دائمٍ.

قال هدايت:

- لازلنا مُهَدَّدين بسكان الجزيرة المتوحشين، وهذا القلق سيبقى مسيطراً علينا، ولن يدعنا مطمئنين.

ضحك محمود وسأل قائلاً:

- وعدم قدرتنا على شواء السمك في النهار؛ أليست محنة أخرى؟!.

رد هدايت على المزاح بهز كتفيه، ثم بدأ الصديقان يتصارعان، فتركهما أحمد مراد وتسلل من بين الأشجار، واتجه نحو النهر يستكشف ما حوله... وفجأةً ألقى بنفسه على الأرض؛ لأنه رأى زورقاً.

كان في الزورق رجلان ألقيا شباكاً مصنوعاً بشكلٍ بدائيٍّ، والسمك يتخبط في الشباك، وقد بدأا بسحبه.

عاد أحمد مراد زاحفاً إلى صديقيه، وهمس قائلاً:

- إنهم السكان المحليون.

نظر الاثنان بحيرةٍ إلى أحمد مراد، وتابع أحمد مراد يقول:

- هيا إلى رماحنا وأقواسنا ونبالنا، فالسكان المحليون يصطادون السمك في النهر، ويمكنهم أن يصطادوا فى

البر أيضاً، ويمكنهم أن يرونا...

حمل الجميع رماحهم وأقواسهم ونبالهم، وقال أحمد مراد:

- محمود! إنْ تواجهْنا مع السكان المحليين الذين يصطادون في البرّ مباشرةً تستتر أنت وراء تلك الشجرة، وأنت يا هدايت تتمترس بهذه الشجرة، وأنا أنتقل إلى خلف هذه الشجرة، ونمنعهم من محاصرتنا. أرجو أن ننتبه جيداً. فلا نرمي أقواسنا جزافاً، لانرميهم إلا ونحن متأكون من الإصابة.

أضاف محمود:

- هذا صحيح، ولتكن رماحنا قريبةً منا، بين أرجلنا، أو نضعها على الشجرة في متناول أيدينا، فلا نعرف ما الذي سيحدث.

قال هدايت:

- سأذهب زاحفاً، وأنظر إلى هؤلاء الصيادين.

استلقى على الأرض، وقبض بيمناه على رمحه، وكانت جعبة النبال على ظهره، وبدأ يتقدم زاحفاً نحو ضفة

النهر.

في تلك اللحظة لوحظ اهتزاز أغصان الشجرة أمامه، وكان هدايت يزحف نحو النهر، فناداه أحمد مراد قائلاً:

- توقف! وعد إلينا فوراً.

رأى هدايت اهتزاز الأغصان والأحراج بشدةٍ، فتوقف وعاد متقلباً إلى صديقيه، ووضع الأصدقاء الثلاثة نبالهم في أقواسهم، وبدؤوا ينظرون إلى مصدر الحشرجة!.

- يجب أن لا نبقى هنا مكشوفين! لننتقل إلى الأماكن التي حددناها وراء الأشجار قبل قليل!، هيا فمن غير المناسب التأخر.

انتقل كل شخصٍ خلف شجرته حسب الاتفاق، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر أهمية ما قاموا به، فالرجال الأربعة ذو الجثث الضخمة خرجوا من بين الأغصان والأحراش، وبدؤوا برمي رماحهم، حتى أن رمح أحدهم قد مرّ ماسحاً الضلع الأيمن لهدايت المختبئ وراء الشجرة، فلو تأخر قليلاً لأصاب ظهره.

رمى السكان المحليون رماحهم، ثم مدّوا أيديهم إلى

جوانبهم، وأخرجوا خناجرهم، وصرخ أحمد مراد:

- استخدموا سهامكم! ولا تدعوهم يقتربون منا،

وأصابت السهام التي رماها هدايت وأحمد مراد السكان المحليين في صدورهم، أما السهم الذي رماه محمود فقد مر من فوق رأس أحدهم، وصرخ الرجل وهو يهجم نحو محمود المستتر وراء الشجرة، أما الرابع فقد أصابته أسهم أحمد مراد وهدايت، فوقع السكين من يديه إلى الأرض، وخر على الأرض وهو يئن.

ودخل محمود في صراع مخيفٍ مع الذي هاجمه، قبض محمود على يد الرجل، وكان يبذل جهداً كبيراً، فالرجل كان يمسك بيده خنجراً كبيراً، ويحاول إفلات يده من قبضة محمود، ليطعن صدره.

كان هذا الرجل مخيف الوجه ضخماً، ويبدو أنه قويٌّ، لكن محمود لم يكن أقل شأناً منه، وكان ينتصر دوماً ولم يهزم أبداً.

كان الرجل ينظر بحقدٍ إلى محمود، ويحاول أن يفلت قبضته من يد محمود، وكان محمود يبذل أقصى جهده

كي لا تفلت يد الرجل من يده؛ لأنه كان يعلم أنه لن يصمد أمام الخنجر الكبير.

في النهاية سقط الخنجر على الأرض، وبضربةٍ من رأس محمود فقد الرجل توازنه، وعندما أدرك الرجل الضخم أنه لن يستطيع مجابهته استدار خلفه، وبدأ بالهروب.

وصرخ أحمد مراد:

- لا تدعوه يهرب، ارموا الرجل بالسهام، وإلا ذهب وأخبر الآخرين، ورمى بالسهم الذي بين يديه نحو الرجل الذي كان يجري بين الأغصان، فأصابه، وندَّتْ منه صرخةٌ عظيمةٌ.

وجرى الأصدقاء نحو الصوت، .. كان على الأرض وأوراق الأغصان آثار الدماء، لكن الصراخ كان يدل على هروب الرجل، وغيابه داخل الغابة. صرخ محمود:

- يجب أن نتبعه، وإلا أخبر أصدقاءه!.

وجرى أبطالنا بين الأغصان والأحراش، لكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به، فقد أمضى حياته في الغابة، وعندما خرجوا إلى مكانٍ مكشوفٍ رأوا ما هالَهُمْ.. إنهم

السكان المحليون يتراكضون. قال هدايت:

- للأسف لن يمكننا اللحاق به بعد الآن، فلندع الله أن لايتمكن من إخبار قبيلته، لكن سرعة غيابه تدل على أن إصابته لم تكن بليغةً.

وأيده محمود وهو يمسح العرق عن جبينه، وهو يقول:

- نعم لن نعلق الآمال عبثاً.

وأنهى أحمد مراد قلق أصدقائه:

- والآن يجب أن نقرر ما يجب أن نفعله؛ فبعد فترةٍ قصيرةٍ سيصلون إلينا.

بدأ هدايت بالكلام:

- أقترح أن نهرب من هنا دون أن نترك خلفنا أثراً.

وأيده محمود:

- معك حق، وماذا تقول أنت ياأحمد مراد؟!.

- الحق معكم، ندخل الغابة، ونهرب نحو هذا الجبل الظاهر، وليكن أملنا بالله كبيراً، فلعله يمنحنا فرصة للنجاة.

- إذاً هيا!.

توجه محمود إلى المكان الذي تصارع فيه مع الرجل

الهارب، وأخذ القوس والنبال التي وقعت منه، وأخذ
92 هدايت وأحمد مراد رماحهما من هناك، ثم بدؤوا
بالتوغل في الغابة وهم حذرون مُتَرَقِّبون.

في الكهف

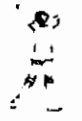

كان الأصدقاء يتقدمون بين الأغصان والأحراش، وفجأةً تهامسوا:

- هيا أسرعوا أيها الأصدقاء، إنهم قادمون!.. وهم ليسوا خمسة أو عشرة فحسب، ...

إنهم يركضون كلما سنحت لهم الفرصة، فهم يسمعون الصراخ والعويل خلفهم، ونَدَّتْ صرخة خافتةٌ من أحمد مراد وهو يمسح العرق من جبينه:

- أشخاص، بل كثيرون... ربما كانوا مئتين أو ثلاثمئة...

أطلَّ محمود من مكانه المرتفع إلى الخلف:

- ليسوا مئتين ولا ثلاثمئة... انظرواأسفل الوادي! إنهم جمع كبير لا يحصى، ربما يتجاوزون الألف، وهم الآن قادمون.

ورأوا جميعاً مئات الأشخاص يختفون تارةً، ويظهرون تارةًأخرى بين النباتات الخضراء، بعضهم يحمل الرماح، وآخرون يحملون العصي، وصرخ هدايت قائلاً:

- لحظاتٌ ويكونون عندنا، لنفرض أننا قتلنا منهم خمسةً، ..عشرة أشخاص، ثم ماذا نفعل بالباقي؟!، إن الرماح التي يمكن أن يرمونها ستجعل من أجسامنا غشاءً من الرمال.

واستمر هدايت في الركض باعثاً فيهم روح الثبات والأمل وهو يقول:

- لن نتخاذل أيها الأصدقاء!، يجب ألا نخاف!، سيجعل الله لنا مخرجاً، .. يجب أن نستمر في الجري!.

قال محمود:

- نعم! نعم!، سنقاوم حتى النهاية، ولنستمر الآن في الركض!.

لم ينزلوا من التلة إلا ووجدوا أمامهم النهر، وصرخ هدايت:

- انظروا! انظروا! كم هو ماء نقي.

فعلاً كان ماء ذلك النهر الذي ينبع من بين جبلين كبيرين مثل البلور، لم يكن يشبه ماء النهر الجاري داخل الغابة أبداً. تمتم محمود الذي تنفس الصعداء:

- أظن أنهم يعتقدون كل من يأتي من الخارج خطراً كبيراً عليهم.

وصرخ هدايت:

- إنهم قرروا الانتقام لصديقهم المقتول، فاركضوا!.

وقف أحمد مراد فوراً، لقد راودتني فكرةٌ:

- هناك سبيلٌ وحيدٌ للنجاة منهم، وهو إخفاء آثارنا.

سأل محمود وهو يجري:

- وكيف نزيل آثارنا؟!...

أجابه أحمد مراد:

- نذهب إلى النهر!... وأشار بيده إلى مابين الجبلين. ونمشي في الماء نحو منبع النهر، وبذلك نخفي آثارنا!

صفق هدايت بيديه فرحاً، وقال:

- نعم! نعم! لندخل بين هذين الجبلين، وليجدونا إن استطاعوا!.

انضم محمود إلى أصدقائه:

- هيا إذاً! لا داعي للانتظار. فإني أحس بأنفاس هؤلاء خلفنا.

دخل الأصدقاء الثلاثة إلى الماء مباشرة، وهم يرتجفون من البرد، وبدؤوا بالسير في الوادي بين الجبلين. كانت أسنانهم تصطك من البرد، وندت عن هدايت تمتمةٌ خافتةٌ ممزوجةٌ بهدير الماء:

- برررررد! الماء مثل الثلج.

محمود:

- الدخول في هذا الماء المثلج خير من الوقوع بين يدي هؤلاء المتوحشين!.

ضحك أحمد مراد:

- أحسنتم أنتم، فقد تعلمتم الحقيقة أخيراً!.

استمروا بالسير في الماء الهادر المنحدر في الوادي،

وأصبحوا الآن بين الجبلين، ولم يكن بالإمكان رؤية قمَّتَي الجبلين، وكانت المياه تنبع من الأعالي من بين الصخور.

وعندما تجاوزوا منعطفاً جديداً في النهر غابت أصوات القوم مرةً أخرى. وتحدث محمود يحثهم من جديد:

- أسرعوا أكثر، أسرعوا أكثر.

كانوا يشقون المياه متقدمين إلى الأمام، ومن حين لآخر يلتفتون إلى الوراء فلا يجدون أحداً، فقد كانوا بعيدين عنهم.

وفجأةً وجد هدايت طريقاً يابسةً بين الجبلين، فقال:

- الحمد لله سننجو من هذا الماء البارد، لنخرج إلى اليابسة فوراً، ونبدأ بالجري.

خرجوا من النهر، لكنهم كانوا في وضعٍ يرثى له، وعلى الرغم من ذلك استمروا في الركض متعثرين للابتعاد عن مكانهم. ولم يتذكروا كم طال بهم الوقت وهم يركضون. وفي النهاية قال محمود:

- أيها الأصدقاء لن أستطيع أن أمضي أكثر من هذا،

إن أردتم اركضوا أنتم، وسألحق بكم بعد أن أرتاح قليلاً.

قال أحمد مراد:

- في السراء والضراء معاً، لا يمكننا أن نتركك وحدك هنا، أليس كذلك يا هدايت.

وانتظر منه التأييد، فقال هدايت:

- طبعاً، فنحن أصدقاء، فما فائدة الصداقة إن كنا سنترك بعضنا عند المصائب، نبحث عن مكانٍ مناسبٍ نرتاح فيه، فنحن لم نعد نسمع الأصوات، يبدوا أنهم فقدوا آثارنا، وربما فقدوا آثارنا، فلنبحث الآن عن مكان نختبئ فيه.

استطلعوا المكان حولهم، فوجدوا كهفاً صغيراً بين الصخور على الجبل الأيمن، وتقدموا نحوه. ونادى أحمد مراد:

- إنه مكان صالح للراحة!...

دخلوا إلى الكهف، وافترشوا الأرض من شدة التعب.

قال محمود:

- لقد وجدنا مكاناً جيداً، ولكن علينا أن نكون حذرين.

ولنبذل جهدنا قليلاً لنجمع شيئاً من العشب ننام عليه، وبعض الأحراش والقضبان نغلق بها فتحة الكهف، فلا يفاجئونا ونحن نيام، أليس كذلك؟.

أضاف أحمد مراد قائلاً:

- صحيح ماتقوله! يجب ألا ندع الحذر، هيا لجمع الأعشاب والأحراش والقضبان...

خرج الأصدقاء الثلاثة، وأخذوا يجمعون السراخس والأعشاب والأغصان والأحراش من الأطراف. نشروا السراخس والأعشاب على الأرض، وأغلقوا باب الكهف بالأغصان والأحراش.

قال محمود:

- إيييه، وهكذا ارتاحت نفسي قليلاً، والآن نستطيع أن ننام.

قال هدايت:

- هذه الأعشاب مريحة، هيا نوماً هنيئاً يا أصدقاء.

وغرق الأصدقاء الثلاثة في نومٍ عميقٍ بسبب تعبهم طليلة النهار، وسيدركون بعد مدة قصيرة كم كانوا مصيبين

في إغلاقهم باب الكهف، فقد وصل عدة أشخاص من الأبطال إلى باب الكهف، وقلبوا النظر حولهم، فلم يميزوا فوهة الكهف المستورة بالأغصان والأحراش عن بقية النباتات، ثم عادوا دون أن يجدوا شيئاً. طبعاً لم ينتبه النائمون لهذه الحادثة، فقد كانوا غارقين في نومٍ عميقٍ بعد ذلك اليوم العصيب...

لغز المدينة الغامضة

لم يستيقظ الأصدقاء إلا في صباح اليوم التالي بعد أن نالوا كفايتهم من الراحة، وخرجوا من الكهف بهدوءٍ. لم يكن أحد يبدو في الأطراف، وهبطوا إلى الوادي يبحثون عن شيءٍ يأكلونه، فقطفوا بعض الفواكه التي وجدوها ثم أكلوها، حتى شبعوا. قال هدايت:

- الحمد لله! فقد نجانا ورزقنا وكفانا.

أضاف أحمد مراد:

- وسينجينا الله مما نحن فيه إن شاء الله، إنه على كل

شيءٍ قديرٍ.

وقال محمود:

- لا شك في ذلك، هيا نتابع المسير الآن.

وبدؤوا بالسير. وما إن ساروا قليلاً حتى قال محمود وقد تعب:

- أيها الأصدقاء لقد تعبت مرةً أخرى، فلنسترح قليلاً هنا.

ثم استند إلى صخرة هناك، لكنه فوجئ بالصخرة تنفتح كالباب. وظهر أمامهم نفقٌ طويلٌ. ونظر الثلاثة إلى بعضهم بدهشة.وتمتم أحمد مراد:

- إنه طريقٌ سريٌّ. إلى أين ينتهي ياترى؟.

أجاب هدايت:

- يجب أن نعرفه قبل أن ندخل.

قال محمود:

- إذا أردنا الدخول فعلينا أن نحطاط.

وسأل الصديقان:

- وكيف؟

- لنشعل سراجاً، فقد نبقى في الظلام إن أغلق الباب علينا!.

وأيده الآخران:

- صحيح! صحيح!.

- نعم نشعل.

لفوا اللبلاب الذي جمعوه على غصن، ثم أوقدوا النار بحجر الصوان. ودخلوا بهذا السراج من الباب إلى الداخل. قال محمود:

- والآن لنغلق هذه الصخرة، وبحثوا بأيديهم عن آلية لإغلاق الباب. وحين لمسوا مكاناً ما بدأت الصخرة تتحرك بهدوء بالدوران، وأغلقت عليهم الصخرة الباب.

قالوا:

- هيا بنا! لننظر ما كتبه الله تعالى لنا؟

- سيرينا الله كل خير إن شاء الله!...

- هيا أيها الأصدقاء.

وبدأ الشباب الثلاثة بالسير في النفق. كان النفق يبدو أنه من صنع الإنسان. ومشوا قرابة مئةِ مترٍ، فبدا لهم نورٌ

يطِلُّ على الاخضرار خارج الكهف، وعندما خرجوا من النفق وجدوا أمامهم مكاناً فسيحاً، .. غابةً خضراء، وأمام الغابة مئذنةٌ بيضاء لجامعٍ جميلٍ تنتشر البيوت حوله، وفرك محمود عينيه وهو يسأل قائلاً:

- أحقاً ما تراه عيناي؟!، جامعٌ وبيوتٌ أليس كذلك أيها الأصدقاء؟!.

أجابه أحمد مراد:

- أجل! أجل! ونحن نرى الأشياء نفسها أيضاً.

وقبل أن يتكلم هدايت جاء إليهم ثلاثة رجالٍ، كان في يد اثنين منهم القوس والنبل وبيد الآخر رمح. وسألهم أحدهما ويبدو أنه زعيمهم:

- كيف وصلتم إلى هنا؟.

أجابه أحمد مراد:

- كنا نهرب من ملاحقة قوم متوحشين في الطرف الآخر! فاستندنا إلى صخرة، فانفتحت الصخرة على نفق مثل الباب، فدخلنا من هذا الباب، ووصلنا إلى هنا.

سأل الرجل سؤالاً آخر:

- أتتكلمون مثلنا؟ من أنتم؟!.

أجابه محمود هذه المرة:

- نحن أشخاص من بغداد والبصرة واليمن، فهذا الصديق تاجر بغدادي، وأنا وهدايت بحاران، التقينا نحن الثلاثة في السفينة نفسها، ووقعنا في البحر نتيجة رياحٍ عاصفةٍ، وكما قلنا؛ تعرضنا للهجوم، وأثناء فرارنا ساقتنا الأقدار حتى وصلنا إلى هنا. أين هنا؟ ومن أنتم؟.

- هذه مدينةٌ نائيةٌ منعزلةٌ، ونحن شعبها، ومن يأتي إلى هنا لن يخرج مرةً أخرى أبداً!.

- لكن كيف؟

- سآخذكم إلى زعيمنا! فإنه هو الذي يجيب عن أسئلتكم! والأن أرجو أن تتبعونا!...

أحاط الحراس الثلاثة بالأصدقاء الثلاثة وبدؤوا بالمسير، كانت المدينة متطورة جداً، والطريق مرصوفاً بالحجارة، وعلى جانبي الطريق زرعت الأشجار والأزهار، .. كان الرجال يلبسون القمصان والسراويل البيضاء، ينظرون بدهشةٍ إلى هؤلاء الغرباء الثلاثة. وكانت البيوت

المطلية باللون الأبيض جميلة جداً بحدائقها الغنّاء. ويظهر بجانب الجامع بناء كبير، ومن الواضح أنهم كانوا يتوجهون إليه.

دخلوا في الممر، وساروا فيه حتى وصلوا أمام أحد الأبواب، وطرق رئيس الحراس الباب، وبعيد دخوله انطلق الصوت من الداخل يأمرهم بالدخول.

فتح الباب، ودخل الأصدقاء الثلاثة!... كانت هناك غرفةٌ كبيرةٌ. وكان إلى جانب نافذة الغرفة أريكةٌ واسعةٌ، يجلس عليها رجلٌ كبيرٌ، يبدوا أنه إنسانٌ جيدٌ. سلم عليه الأصدقاء الثلاثة:

- السلام عليكم.

فأجابهم باهتمام:

- وعليكم السلام. ثم وقف على رجليه، وأشار إلى مكان على الأريكة في جانبه. وقال:

- تفضلوا ياسيدي! أتيتم أهلاً وحللتم سهلاً!.

فرح الأصدقاء الثلاثة بهذا الاستقبال الجميل. وقال محمود:

- نشكركم الشكر الجزيل يا سيدي. لقد أزعجناكم بلا إرادةٍ منا.

- أنتم ضيوفنا، كيف وصلتم إلى هنا، من فضلكم هل يمكنكم أن تشرحوا لنا؟

نظر محمود إلى أصدقائه. وعندما لاحظ أنهم تركوا الكلام له بدأ يشرح له ماأصابهم منذ ركوبهم السفينة. وفي النهاية أنهى كلامه قائلاً:

- وهكذا نكون قد وصلنا إلى مدينتكم ياسيدي.

سمع العجوز كل ماشرحه محمود باهتمام وقال:

- من لطف الله بكم ان نجاكم من أولئك المحاربين! فنحن نعرف شدتهم وبأسهم. فقد عانى آباؤنا منهم الصعاب، ونحمد الله على نجاتنا من مصائبهم بعد استقرارنا في هذه المدينة النائية، ولو تمكنوا من اكتشاف مدينتنا الآن؛ فلن يستطيعوا إلحاق الأذى بنا، فنحن الآن أقوى منهم، ولا يمكنهم الصمود في وجهنا، لكننا لا نريد لقاءهم، ولا نحب سفك الدماء!

أصيب أحمد مراد بالذهول، وسأل:

- وكيف وصلتم يا سيدي إلى مثل هذه الحال، وأتيتم إلى هذا المكان، وانعزلتم عن أولئك القوم؟!.

نظر العجوز إلى أحمد مراد مبتسماً، وقال:

- حسناً سأشرح ياولدي. منذ سنين غرقت سفينةٌ تجاريةٌ كانت تتجه من البصرة إلى الهند في هذه السواحل، واستطاع عشرون رجلاً وعشرون امرأة وأربعون طفلاً الخروج إلى هذا الشاطئ. وعندما دخلوا في الغابة هجم عليهم سكان هذه الجزيرة، وتمكن آباؤنا من النجاة بأنفسهم، وكان فيهم جنود حاولوا منعهم من الاقتراب بالأقواس والنبال، واضطروا إلى قتالهم بالسيوف أحياناً، وزهِقَتْ أرواح من الطرفين أثناء المعارك، وكما فعلتم أنتم للنجاة من هؤلاء، فقد توجهوا إلى سفوح الجبال عندما علموا بكثرة عددهم، وفي النهاية وصلوا إلى المكان الذي ينبع منه الماء البارد كالثلج بين الجبلين، وساروا نحو الداخل، ووجدوا تلك الصخرة كما وجدتموه أنتم، فدخلوا النفق كما دخلتم، وخرجوا إلى هذا المكان الفسيح، وكما ترون عمروا هذه البيوت، وطوروا هذه

المنطقة.

ثم كثر عددنا، حتى أصبحنا نتجاوز الألفين، إن لنا نشاطنا في هذا المكان المجهول البعيد عن كل مكان، وأنا رئيس هذه المنطقة، نعيش جميعاً جنوداً ومعلمين ومهندسين وعمالاً سعداء في هذه المدينة النائية. آه.. نسيت أن أقول: إن لنا صلة مع البحر، فإن حانت الفرصة فسترونها بأنفسكم، وهذه الصلة مع البحر تؤمن إمدادنا بالسمك بواسطة قوارب صيادينا، وعلى كل، ليست لنا مشكلةٌ كبيرةٌ مع السمك، فنحن نربي السمك الزبيدي.

فرح محمود كثيراً بكلام هذا العجوز، فهم في منطقة متصلة بالبحر، فمن الممكن أن يعودوا إلى بلدانهم عن طريق البحر من دون التعرض للسكان المحليين، لكن شيئاً ما كان يقلقه، فسأل:

- وهل مكان الاتصال بالبحر منعزل عن سكان الجزيرة المتوحشين؟!.

- يعيش في ذلك المكان أيضاً سكان بدائيون غير الذين واجهتموهم.

انضم هدايت إلى الحديث:

- لكنكم كمسلمين ألا تعملون على تعليمهم وتربيتهم؟

اتسعت عينا العجوز:

- في سبيل تربيتهم وتعليمهم خسرنا خمسة عشر صديقاً، فكانوا ضحيةً لنياتهم الحسنة تلك.

- حسناً، ماذا لو قاتلتموهم؟!.

- وأي شيء يحله القتال؟!، فنحن بإذن الله لن نخشاهم، ولدينا خمسمئة من الجنود المدربين، وكلهم يتقنون استعمال القوس والقتال بالسيف، ولكن أليس حراماً قتل كل هؤلاء الناس؟!.. لهذا السبب نحاول أن نبتعد عنهم ما أمكن، .. وسائل نقلنا البحرية موجودة في مخابئ جيدة في النهر، يتناوب عليها الحراس، ولم يقترب من قواربنا حتى الآن أحد من السكان المحليين، ولو أرادوا الاقتراب منه براً فسيواجهون فخاخاً مختلفة. وسيندمون على اقترابهم، ولن يفكروا بالاقتراب أبداً!.

ولم يعد محمود يستطيع أن يصبر أكثر، فسأل:

- حسناً، ومتى تسمحون لنا بالسفر؟

تغير وجه العجوز فوراً، وقال:

- انظروا ياشباب، إن من يدخل هذه المنطقة لا يستطيع أن يخرج منها أبداً...

- لكن لماذا؟

- سأبين لكم الأمر!. لقد أسسنا هنا حضارة، ونعيش حياةً جميلةً جداً، فمن يخرج من هذه المنطقة، ويدل على مكان وجودنا فسيعرض أمنَنا للخطر. ولهذا السبب سأصدر أوامري للمهندسين، حتى يغلقوا تلك الفتحة التي أتيتم منها بالحجارة، فقد يجدها أحد الأشرار مصادفةً، وعندها يتعرض أمن المدينة الغائبة عن عيونهم للخطر، اعلموا جيداً أن الشخص أو الأشخاص الذين يدخلون المنطقة يصبحون أفراداً من سكانها. رضوا بذلك أم لم يرضوا!...

بعد هذا الكلام القاطع فهموا جميعاً أنه لا يمكن بحث هذا الموضوع مرةً أخرى، فصمتوا، ولم يتكلم منهم أحدٌ. واساهم العجوز قائلاً:

- يبدو أنكم قلقون. لكن مع بقائكم هنا ستحبون هذا

المكان، ولن ترغبوا مغادرته.

في الحقيقة كان حزن الثلاثة كبيراً، فبينما كانوا يهربون من السكان المحليين دخلوا في منطقةٍ مجهولةٍ لا يستطيعون الخروج منها، لقد تم سلبهم حرية عودتهم إلى بلادهم. وهل هناك شيء أغلى من حرية الإنسان؟!.

نظر العجوز بعينيه في وجوههم، وقال:

- والآن سيأخذكم الحراس! تنظفوا وكلوا وارتاحوا، وفي المساء سيجتمع والينا معكم.

خرجوا من مجلس العجوز شاكرين، ومعهم أحد الحراس. وتساءل محمود قائلاً:

- لقد أُخِذْنا على حين غِرَّةٍ، وبدأت أشعر أني دخلت في قفصٍ!.

فأجابه أحمد مراد:

- وأنا مثلك. ليتنا قاتلنا السكان المحليين، ولم نخسر حريتنا.

قال هدايت:

- سيعيننا الله يا أصدقاء، وسنصبر حتى نرى ما قدره

الله لنا.

تنهد أحمد مراد:

- كل شيء على ما يرام إن شاء الله، لقد اشتقت لأبي وأمي العجوزين شوقاً يجعلني أتخيلهم أمام عيني. ثقوا أنهما يدعوان لي.

ربّت محمود على كتف أحمد مراد:

- إذاً لن يصيبك مكروهٌ، فإن الله لا يرد دعاء الوالدين...

ضحك أحمد مراد:

- كان الله في عوننا حميعاً..

كانوا يتكلمون وهم يسيرون مع الحارس، ووقف الحارس أمام بناء كبير:

- تفضلوا.

كان المكان الذي دخلوه حماماً، واغتسل الأصدقاء هناك، وعندما خرجوا كان أمامهم لباس سكان أهل المدينة، قميص أبيض وسروالٌ من القماش نفسه، ثم دخلوا إلى مقرّ الضيافة، فأعجبهم المكان بحديقته المليئة بالأزهار المختلفة، والفراشات المتطايرة، والنحل. وتناولوا

طعامهم هناك.. كان الطعام لذيذاً وكثيراً. وجاء بعدها الحلوى والفاكهة، وحقق لهم ذلك بعض الفرج. ثم دلهم الحارس على غرفة النوم، فوجدوها مفروشة بثلاث فرش، فدخلوها وناموا فرحين.

لم يستيقظوا إلا على أذان المغرب، نهضوا مباشرة وتوضؤوا، وطلبوا من الحارس في الخارج الذهاب إلى المسجد.

وعدما فرغوا من صلاة المغرب مع الجماعة في مسجد البلد الكبير، قال الحارس:

- والآن ستقابلون والينا.

أجابه محمود:

- هيا إذاً.

قال الحارس:

- إنه في المسجد أيضاً، سيخرج الآن وسأعرفكم عليه.

ودلهم على رجلٍ عجوزٍ مشرقِ الوجه يخرج من المسجد، فتوجه نحوه، واستمع الوالي إلى حديث الحارس، ونظر مباشرة إلى وجه الأصدقاء الثلاثة، واقترب الثلاثة من

العجوز. سأل الوالي:

- هل أنتم الشباب الذين دخلوا منطقتنا؟!.

أجابه أحمد مراد:

- نعم ياسيدي!.

قال الوالي:

- كان قدومكم خيراً لنا، فقد ربحنا شباباً مثلكم، هيا تفضلوا سنركب هذه العربة القادمة، ونتوجه إلى قصر الولاية، ونتابع الحديث هناك.

ركبوا العربة، وتحرك الحصان بأصوات الأجراس المعلقة على رقبته في طريق جميلٍ. ولما بلغوا القصر كانت مأدبة الطعام جاهزةً. وبعد الفراغ من الطعام توجهوا جميعاً إلى غرفة الوالي، وجلسوا حيث أشار الوالي، وكان معهم نواب الوالي. واستمعوا إلى قصتهم، وما أصابهم مرةً أخرى.ثم فكر الوالي قليلاً، وبدأ الحديث:

- أظن أن رئيسنا قد وضح لكم كل شيء، إنكم لا تستطيعون الخروج من هذه المنطقة، وأصبحتم أحد أفرادها، ولكن لا تقلقوا، فستكونون أصحاب عمل هنا،

وسيكون لكم بيوت، وتتزوجون من ترغبون من بنات العائلات ذات الشرف والجمال، ونقدم لكم العون المطلوب. يمكنكم حالياً البقاء في دار الضيافة. ويمكنكم أن تباشروا أية مهنةٍ تريدونها.

ثم وجه سؤاله إلى أحمد مراد: كيف كنتم تمضون أوقاتكم سابقاً؟

فأخبر بأنه كان تاجراً، ومحمود وهدايت كانا ملاحين في السفينة. فقال العجوز:

- هذا رائعٌ، سنعطيكم رأسمال، تؤدونها كلما كسبتم المال، وتعملون أنتم في القوارب في الأسفل، ولقد سعدت بوجودكم بيننا أيها الشباب. هيا لنصَلِّ العشاء، ثم أستأذنكم؛ لأنه ينبغي الاستيقاظ مبكراً من أجل متابعة أمور البلد.

وبعد صلاة العشاء مع الجماعة في المسجد توجه الأصدقاء الثلاثة إلى دار الضيافة، وتمددوا، ثم ناموا صامتين، فحياتهم ستمضي في هذه البلدة...

حياتهم في المدينة المنعزلة

مضت خمسة أعوام عمل خلالها أحمد مراد بالتجارة، واستطاع في العام الثاني أن يوفي ما عليه من ديون الذهب، وأصبح صاحب رأسمال، وهو الآن من التجار المعتبرين في المدينة المنعزلة، الوادعة، الصالحِ أهلُها.

وعمل محمود وهدايت ملّاحَيْن في قوارب المدينة. كانت أجرتهما جيدة، وبدؤوا بجمع المال، وقد اشترى كل واحد منهم بيتاً، وقد تزوجوا، وكان لزوجاتهم دور في شراء البيوت، فهن من عائلات غنية في البلد.

لقد ولد أحمد مراد بنتاً وصبيّاً، سمى ابنته خديجة وولده عبد الله، وكان لمحمود ثلاث بناتٍ. أما هدايت!... فقد أصبح له ستاً من الأولاد، ست أولاد في أربعة أعوام! ربما يكون هذا عجيباً، فقد ولدت له زوجته في العام الأول ثلاث توائم، وفي الأعوام الثلاثة اللاحقة ولدت له ثلاثة أولاد بالتتابع، وكان هدايت مسروراً في حياته، يعود من عمله إلى بيته، يحب أولاده، ويلاعبهم في البيت، أو في حديقة البيت.

لم يكن هناك سبب في عدم سرور الأصدقاء الثلاثة، لكنه الشوق للوطن... فعلى الرغم من عملهم الجيد، وحب الجيران لهم، وخاصة أحمد مراد ومحمود، فقد اشتاقوا لأوطانهما كثيراً، وكانوا يبحثون عن مخرجٍ أو مهربٍ من هذا البلد المكتوم.

وذات جمعةٍ اجتمعوا في بيت هدايت، وبينما كان الرجال يتحدثون في الحديقة تحت الشجرة، كانت النساء داخل البيت. سأل أحمد مراد قائلاً:

- هل قررت ياهدايت؟

أجاب هدايت بشكل قاطع:

- أيها الأصدقاء! لقد فكرت كثيراً، وليس لي أي قريبٍ لا في أطراف اليمن ولا في بغداد ولا في البصرة، وكما تعلمون فإن طفولتي مضت بشتى أنواع المصائب، وقد وجدت ذاتي في هذا البلد المكتوم، وأصبحت غنياً، وصارت لي زوجةٌ، وبيتٌ، وأولادٌ، وأقرباء من طرف زوجتي. لقد وجدت سعادتي في البلد المكتوم، وجدت هنا كل شيءٍ جميلٍ لم أره من قبل، والآن كيف أقوم وأهرب من هنا؟ أعتقد أنكم تفهمونني جيداً، لا تغضبوا مني، فأنا لا أستطيع الخروج من هنا.

قال محمود:

- الحق معك يا هدايت. كل شخصس حرٌّ يفعل ما يريد، ولن نغضب عليك، ولكن إياك أن تخبر أحداً بأننا سنهرب!...

- وهل يمكن أن أظهر شيئاً ياأخي؟.. عليك أن لا تقلق من ذلك الأمر، وسأبذل وُسْعِي لتأمين هروبكم.

- نعم هكذا!...ولا تنس بعد هروبنا أن تخبر سكان البلد

أننا لن نُحَدِّثَ أحداً عن البلد المكتوم؛ لذلك عليهم أن لا يخشوا من هذا شيئاً.

- نعم سأخبرهم.

وتوجه محمود هذه المرة نحو أحمد مراد:

- وهل قمت بالتحضيرات؟!.

أجابه أحمد مراد:

- وكيف لا؟ ومنذ زمن.

- هل أخبرت زوجتك عن أي شيء؟!.

- تعرف ذلك، وهي جاهزة للسفر معنا، إنها تقول وطن المرأة بلد زوجها.

- أحسنت!. وزوجتي تقول ذلك أيضاً. لكن ماأخبار عبد الله؟!.

- وعبد الله جاهزٌ أيضاً، يقول: إنه سيخرج للسفر أي وقتٍ تريدون.

كان عبد الله أيضاً قد نجا من الغرق، وبلغ البلد المكتوم. وكان شخصاً من البصرة، وقد بقي في هذا البلد عشر سنواتٍ، وعندما علم أن أحمد مراد وهدايت ومحمود

قد دخلوا البلد المكتوم مثله، التقى بهم، وخطط معهم الهروب. وكان عبد الله بحاراً أيضاً. وأضاف محمود:

- في الأسبوع القادم سنكون أنا وعبد الله في حراسة القوارب، وعلينا أن نهرب ذلك اليوم، ولن نجد فرصة أفضل من هذه مرةً أخرى.

قال هدايت:

- صحيح، إنها خطةٌ جيدةٌ، سأكون حزيناً لفراقكم، لكن علمي أنكم لن تكونوا مسرورين هنا سيكون عزاءً لي، ولن أتحدث عن مغادرتكم.

تدخل أحمد مراد قائلاً:

- شكراً لك هدايت، صداقتنا لن تنتهي، ولن ننساك. ولكن ماذا نفعل؟!...

قاطع محمود حديث أحمد مراد:

- هل قررنا الآن؟

قال أحمد مراد:

- ما تستلمون الحراسة في الأسبوع القادم؟.

- الخميس ليلة الجمعة!.

- جميلٌ!... في الليلة نفسها تماماً سآتيك بأهلك مع أهلي.

- وأهل عبد الله؟

- صحيح، طبعاً أهل عبد الله أيضاً، ولكن على عبد الله أن يجهز ما يلزم قبل الذهاب إلى الحراسة.

- سنتكلم مع عبد الله أيضاً.

- خيراً إن شاء الله!.

الفرار من عزلة المدينة!

في الخميس ليلة الجمعة، كانت ليلةً جميلةً في الغابة، نظر أحمد مراد بحب إلى زوجته التي ألبست أولادها، وسألها:

- هل أنت حزينة يازهراء؟.

ابتسمت زهراء لزوجها:

- ولماذا أكون حزينةً!.

- لأنك ستفارقين المدينة وأباك وأمك...

- سأجيبك لأنك سألتني، طبعاً لن يكون هذا الفراق

سهلاً، لكن فراقك سيحزنني أكثر... لن أكون سعيدةً إلا بجوارك. عمت السعادة نفس أحمد مراد إثر هذه الكلمات الطيبة من زوجته، فقال لها:

- أعدك يازهراء أن لا أزعجك أبداً، ولن تكوني نادمةً على قرارك هذا أبداً.

- إني أصدقك يا أحمد مراد، ولو لم أكن أصدقك لما اتخذت قراراً كهذا!.

- إن أهل محمود وعبد الله قد استعدا أيضاً، وعلينا أن لا نتأخر عليهم.

كان هدايت ينتظرهم بالعربة في الخارج، وعندما شاهد أحمد مراد وزوجته، أشرق وجهه الذي كان ينيره ضوء القمر. وسأل أحمد مراد:

- إلى أين سنذهب الآن؟.

- في البداية إلى أسرة محمود، ثم أسرة عبد الله.

- حسناً.

وتحركت الدابتان تقودان العربة على مَهَلٍ. وتوقفت بعد قليلٍ عند زوجة محمود وأولاده، ثم زوجة عبد الله

وولده، وركبوا العربة جميعاً.

ظن الحراس الذين مروا بهم في الطريق أنهم يخرجون للتجول. وبعد فترة من الزمن، نزلوا نحو القوارب، وكان محمود وعبد الله ينتظرانهم في حماس، وكان القارب الصغير جاهزاً للفرار. ركب الجميع مع عائلاتهم على القارب، ورفعوا أيديهم ملوحين، وهم يقولون لهدايت:

- نستودعكم الله.

ثم بدأ القارب يغيب بعيداً في النهر، ثم نزل إلى البحر، وانفتح على أفقه الواسع. كان الرجال والنساء يبتهلون بالدعاء لله، وبدأت الرياح القوية والأشرعة التي انتفخت تجري بهم بسرعة على سطح البحر، وبدأت الجزيرة تختفي عن الأنظار، تشتد الرياح تارة فيقلقون، وتهدأ تارة فيطمئنون. وبعد سفر طويل استغرق شهراً؛ وصلوا إلى البصرة. قال محمود وعبد الله:

- يا أحمد مراد، نحن لا نفكر بالبقاء في البصرة، نودع بعضنا الآن، ونتعاهد على نزور بعضاً، لن ننسى صحبتك أبداً!.

وردَّ أحمد مراد:

- لاشك في ذلك! وكيف أنسى صداقة جمعتنا وقت الضيق، فقد كنتم لي خير أصحاب. لكننا سنفتقد غياب صديقنا العزيز هدايت دوماً.

وأطرق محمود وعبدالله برأسيهما وهما يتمتمان:

- صحيح!.

وفي بغداد. استقبل أحمد مراد من قبل أهله وأمه وأبيه وأقربائه وجيرانه وأصدقائه بدهشةٍ وسرورٍ، فقد كانوا يعتقدون أنه غرق في البحر.

كان التاجر البغدادي العجوز شريك أحمد مراد، وقد استمرت سفينتهم في رحلتها، قد باع أموال أحمد مراد، وأعطاها لأبيه وأمه العجوزين اللذين ورثاه، فكان الاثنان يعيشان في بحبوحةٍ بهذه الأموال. وقد تم لهما السرور بعودة أحمد مراد إلى بغداد بالغنى الوفير، فاشترى لنفسه مصرِفاً ودكاناً.

لم يقطع أحمد مراد صلته بمحمود وعبد الله، ودعاهما لزيارته إلى بغداد من حين لآخر، وذهب لزيارتها أحياناً

أخرى. وبينما كان الأولاد يلعبون في حديقة البيت؛ كان
130 يجلس هو وأصدقاؤه يتبادلون الأحاديث، وربما كانت

تدور في الغالب حول مغامراتهم، ولغز المدينة الغامضة!.